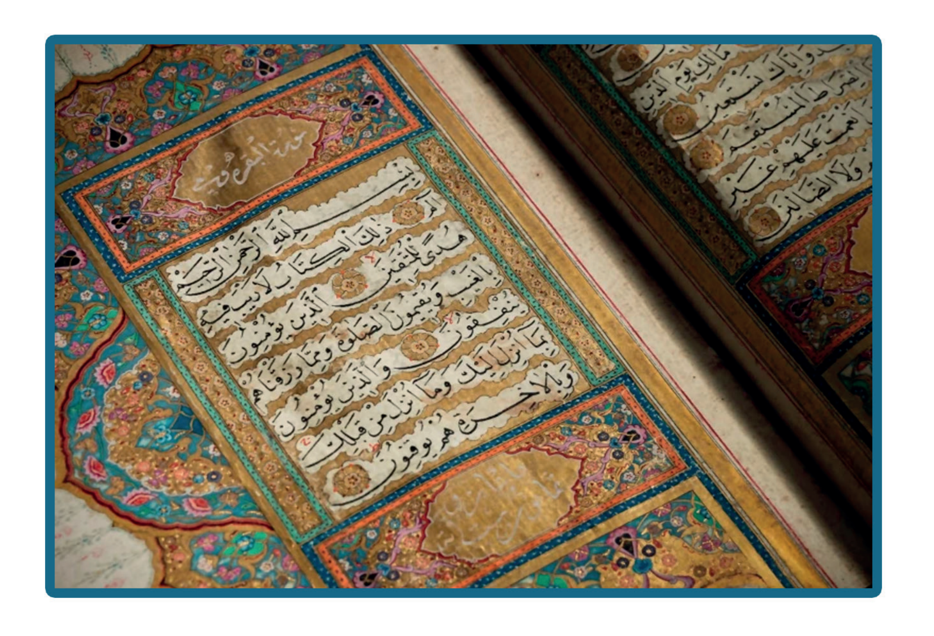
أطروحات ورسائل 24

مقاصد السنن الاجتماعية في القرآن الكريم



أنيسة بنعيم سحتان







كتاب: مقاصد السنن الاجتماعية في القرآن الكريم
تأليف: أنيسة بنعيم سحتان
الناشر: مركزفاطمة الفهرية للأبحاث والدراسات (مفاد)
ردمك: ISBN : 978-9920-576-16-1
الطبعة الأولى: 1443هـ / 2022م
التدقيق والإخراج الفني: www.islamanar.com

مقاصد
السنن الاجتماعية
في القرآن الكريم

أنيسة بنعيم سحتان

بسم الله الرحمن الرحيم




قال الله تعالى:

(قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ، هَذَا بَيَانٌ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِلْمُتَّقِينَ).

سورة آل عمران / الآيتان: **137 / 138.**





Manar al islam
islamanar.com




إهداء:

- إلى والديَّ الحنونين إجلالا..

- إلى إخواني وأخواتي حبّاً واحتراما

- إلى أهلي وأحبابي وكل من يهمهم أمري..

- إلى كلّ من أرشدني ووجهني في مسيرتي العلمية، وفي مقدمتهم أستاذي المشرف على بحثي هذا؛ فضيلة الأستاذ الدكتور: رشيد كهوس.

- إلى هؤلاء جميعا أهدي ثمرة جهدي.





Manar al islam
islamanar.com

شكر وتقدير

الحمد لله أولا وآخرا، والثناء عليه بما هو أهله سبحانه وتعالى، وعملا بقوله صلى الله عليه وسلم:" **لا يشكر الله من لا يشكر النّاس** " - رواه أحمد والترمذي وغيرهما، من حديث أبي هريرة رضي الله عنه -.

فإني أتقدم بخالص شكري، وعظيم امتناني إلى كليتي العامرة " كلية أصول الدين "، على ما تقوم به في سبيل خدمة العلم وطلاّبه، وما تبذله من جهود في نشر العلم والمعرفة..

وأخص بالشكر السّيد العميد **الدكتور محمد التمسماني**، وجميع أعضاء هيئة التدريس، فجزاهم الله خير الجزاء.

وعرفانا لأهل الفضل بجميل فضلهم، وَوَفاءً لأهل الإحسان بصنيعهم، فإني أعبّر عن وافر شكري وتقديري لفضيلة الأستاذ: **الدكتور أبو اليسر رشيد كهوس**، الذي أشرف على بحثي هذا، وأمدّني بتوجيهاته وتصويباته، ولم يبخل عليّ بالنصح والتوجيه طيلة فترات إنجاز هذه الرسالة، والتي آمل أن ترقى للمستوى المطلوب، وتحقق الهدف المرغوب..

والشكر موصول أيضا لكل من وجهني وأرشدني من قريب أو بعيد..


Manar al islam
islamanar.com

مقدمة:

الحمد لله الذي أحسن كل شيء، خلقه، خلق الإنسان في أحسن تقويم، ثم نثر في ملكوته علامات تهديه، وسننا ترشده، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين.

أما بعد:

فلا غرو أنَّ مشيئة الباري عزَّ وجلّ وحكمته البالغة وتدبيره المحكم تجلّى في خلقه لهذا العالم سفليّه وعلويّه، بهذا التناسق البالغ الدقة والإتقان، ثم إخضاعه لنواميس وسنن تجعله أكثر تناسقا وانتظاما في جزئياته وكذا حركاته وسكناته، كما سنّ للإنسان فردا كان أم جماعة - وهو الخاضع كذلك لهذه النواميس والسنن - شريعةً تنظم حياته وترتقي بإنسانيته لتحقيق تعايش يسوده الأمن والسلام والاستقرار.

فالله سبحانه وتعالى لم يترك الحياة الاجتماعية تسير عبثا، بل جعل لها قوانين تنظمها، ونواميس تحكمها، فكما أن للمادة قوانين ثابتة لا تتغير، فإن للأمم والمجتمعات كذلك قواعد ونظما تنظم سيرها وتحكم مسيرتها.

فمنظومة السنن الإلهية إذاً لم تقتصر على المجال الكوني فقط، وإنما شملت المجال الاجتماعي أيضا، والجدير بالذكر كذلك أن هذه السنن الاجتماعية جاءت لتحقيق جملة من المقاصد والغايات السامية، لذلك وجب الاهتمام بهذا الموضوع أكثر؛ من خلال إبراز مقاصد هذه السنن الاجتماعية بالرجوع إلى القرآن الكريم باعتباره أهمّ مصادر السنن.

ومن هذا المنطلق كانت فكرة موضوع هذا البحث، والذي وسمته ب: "**مقاصد السنن الاجتماعية في القرآن الكريم** ". وهو موضوع رسالتي لنيل شهادة الماستر،[1] والذي أسعى من خلاله إلى إضافة لبنة جديدة جادّة في مجال الدراسات الإسلامية عامة والقرآنية خاصة والسننية على الخصوص، مهما كانت هذه الدراسة متصفة بالنقص والقصور، وهذا حال كلّ جهد بشري.

(1) ماستر العلوم الإسلامية، مناهج الاستمداد وآليات التجديد، تنسيق: فضيلة الأستاذ الدكتور رشيد كهوس.

- **إشكالية البحث:**

من خلال ما سبق يمكن تحديد الإشكال المركزي؛ والذي يتمحور حول **كيفية إبراز مقاصد السنن الاجتماعية من خلال القرآن الكريم، وفهمها وربطها بالو اقع الاجتماعي**.

- **أهمية و أسباب اختيار الموضوع:**

مما سبق يمكن إبراز أهمية و أسباب اختياري للموضوع الذي سأتناوله في بحثي المتواضع فأقول بحول الله:

لقد أمدني فضيلة الدكتور رشيد محمد كهوس- حفظه الله - بعدة عناوين بحوث، وكانت كلها ذات قيمة علمية كبيرة، ووقع اختياري بعد التوكل على الله تعالى على عنوان: "**مقاصد السنن الاجتماعية في القرآن الكريم** " راجية من الله ﷻ التوفيق فيه.

أما أسباب اختياره فهي مرتبطة وراجعة إلى الأهمية التي يكتسبها هذا الموضوع. **ومنها ما هو موضوعي ومنها ما هو ذاتي.**

أولا: الأسباب الذاتية:

1/ كونه موضوعا اجتماعيا بالدرجة الأولى

2/ الرغبة في معرفة واسعة حول موضوع مقاصد السنن الإجتماعية في القرآن الكريم هي السبب الرئيسي لاختيار هذا البحث.

3/ مواصلة مساري الدراسي في التحصيل العلمي والمعرفي، والذي يتجلى أكثر في إنجاز البحوث الأكاديمية، وفقا لتوجيهات وإرشادات أساتذتنا الفضلاء.

4/ تطوير ما اكتسبته من مهارات بحثية ومنهجية سواء في تجربتي الأولى مع بحث التخرج من سلك الإجازة، أو البحوث والعروض المنجزة بسلك الماستر في الفصول الثلاثة السابقة.

5/ تعميق فهمي لعلم السنن الإلهية، والنهل من خبراء هذا الميدان، وفي مقدمتهم أستاذي المشرف على هذه الرسالة، فضيلة الدكتور رشيد كهوس.

6/ محاولة إضافة لبنة جديدة جادة في مجال الدراسات الإسلامية عامة والقرآنية خاصة والسننية على الخصوص، مهما كانت متواضعة قاصرة، فهذا حال كل جهد بشري.

7/ اهتمامي بموضوع السنن الاجتماعية مطالعة وبحثا وتتبعا خاصة في ضوء القرآن الكريم.

ثانيا: الأسباب الموضوعية:

1/ أن هذا الموضوع يمتاز بالواقعية، وعليه فإن النتائج التي سيوصل إليها البحث يمكن الإفادة منها في عصرنا الحاضر وفي واقعنا المعيش.

2/ الحاجة الماسة إلى العناية بالموضوعات ذات الطابع الاجتماعي؛ خاصة ونحن نرى هذا الوضع الذي آل إليه المسلمون، وسببه المباشر هو جهلهم بسنن الله تعالى الاجتماعية، وليس من سبيل للخروج منه إلا بفقهها والعمل بمقتضاها.

3/ القيمة العلمية والمكانة الرفيعة للموضوعات التي تتصل بالقرآن الكريم؛ إذ شرف العلم من شرف المعلوم، ولا شك أن هذا البحث يدور في فلك الأحكام القرآنية، ولا يخرج عن رحابها الواسع.

4/ قلة الدراسات السابقة في هذا الموضوع رغم قيمته ومكانته العلمية الكبيرة؛ حيث لم يُعط من الاهتمام ما يستحق، خاصة مع تطور الواقع وتجدد الوقائع، وهذا الموضوع يحتاج إلى مواكبة مستمرة وتجديد دائم؛ لأنه يربط بالمجتمع ولا ينفك عنه، لذلك ينبغي فهم السنن الاجتماعية وتنزيلها في ضوء الواقع.

ومن هنا تبرز أهمية دراسة مثل هذه المواضيع من أجل أن نتعلم مما حدث في السابق ونستفيد منه في حاضرنا ومستقبلنا وهذا هو المبتغى والهدف الأسمى من دراستي لهذا الموضوع.

- أهداف البحث:

يهدف هذا البحث أساسا إلى محاولة الإجابة عن الإشكال السالف الذكر - قدر المستطاع -، ولذا فإنَّ الأهداف المرجو تحقيقها من خلال هذه الدراسة يمكن اختصارها في الآتي:

– تأكيد أهمية الاعتناء بالسنن الاجتماعية عموما، وإبراز مقاصدها على وجه الخصوص.

– الوقوف على معالم تلك السنن الاجتماعية في ضوء الآيات القرآنية، وبيان مقاصدها ومراميها.

– السعي وراء تطبيق هذه السنن وذلك بانتقالها من الجانب النظري إلى جانب الممارسة وتطبيقها على أرض الواقع.

- منهج البحث:

اقتضت طبيعة هذا البحث أن يكون اعتمادي على ثلاثة مناهج بالأساس، وهي: المنهج الوصفي، والمنهج الاستقرائي، ثم التحليلي:

بالنسبة **للمنهج الوصفي**؛ فيتمثل بالأساس في توصيف المعاني والمفاهيم التي يرتكز عليها البحث كمفهوم المقاصد، والسنن الاجتماعية، وغيرها..

وأما **المنهج الاستقرائي**؛ فيتضح من خلال تتبع واستقصاء مادة " مقاصد السنن الاجتماعية " في نصوص القرآن، ومجمل مصادر البحث ومراجعه.

ثم **المنهج التحليلي**؛ ويتجلى في تحليل ومناقشة ما تم استقراؤه من مادة البحث، للوصول إلى الأهداف المرجوة.

وأمّا بخصوص المنهج العام في كتابة البحث وتوثيق النقول، فقد حرصت على ما يلي:

– الرجوع إلى المصادر الأصلية في البحث ما استطعت إلى ذلك سبيلا.

– الحرص على التزام الأمانة العلمية في عزو الأقوال إلى قائليها، وبذل الجهد في نقل قول كل قائل من مصدره قدر المستطاع.

– الحرص على تدعيم البحث بالنصوص الشرعية من الكتاب والسنة التي تخدم الموضوع، مع تمييز ذلك بالأقواس والعلامات المعروفة.

– بيان مواضع الآيات القرآنية من المصحف الشريف وذلك بذكر اسم السورة ورقم الآية وفق رواية ورش عن نافع.

– الاستعانة بكتب المعاجم واللغة لشرح ما ورد من مفردات في هذا البحث.

- الدراسات السابقة:

بحسب ما اطلعت عليه من مصادر ومراجع بخصوص موضوع هذا البحث، فإني لم أجد من اهتم بقضية مقاصد السنن الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم - وفق هذا العنوان بالضبط -، مما دفعني وحفزني لاختيار هذا الموضوع ليكون مجالا للبحث والدراسة، وهذا لا يعني انعدام الدراسات السابقة حول موضوع السنن الاجتماعية عموما، بل كان هناك اهتمام كبير بهذا المجال، ومن أبرز تلك الدراسات أذكر مايلي:

1/ السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول (دراسة تأصيلية تطبيقية على الأمم المسلمة والكافرة)، الدكتورمحمد أمحزون.

كتاب مطبوع في ثلاث مجلدات؛ احتوى المجلد الأول على القسم النظري (التأصيلي). والمجلد الثاني على القسم التطبيقي (السنن العامة). والمجلد الثالث على القسم التطبيقي (السنن الخاصة).

تم استهلال الكتاب بمقدمة تتضمن بديهيات مبدئية لفهم موضوع الكتاب فبدأ صاحب الكتاب بالتأكيد على وجود السسن الاجتماعية بقدر وجود سنن الفيزياء والكيمياء، ورأى أن المصدر الأول لهذه السنن هو الوقائع التاريخية (الأمم السابقة، قصص الأنبياء...) المسجلة في القرآن الكريم... فعلى متدبر القرآن أن يعي هذه السنن الاجتماعية ويفقهها لأنها المنارة التي يدرك بها القارئ ما سيحدث مستقبلا لأي مجتمع بشري.

وقد أكّد الدكتور محمد أمحزون على غاية مهم من غايات دراسة السنن وفهمها بُغية الاستفادة منها في الواقع المعاصر؛ حيث قرّر أنه لكي نتخطى ما حدث للأمم السابقة من هلاك، ولكي ننقص من خطر الوقوع في نفس الأزمات التي وقعت فيها تلك الأمم فصاحب الكتاب قد تدبر القرآن وجمع لنا في الكتاب جملة من السنن الاجتماعية التي تكون الهدى لتيسير حياة الناس.

فجاء هذا الكتاب لينير عقل المسلم ويرشده إلى ضرورة التبصّر وفق الهدي السنني، لمعرفة أسباب الجمود والركوض، وتحديد مواطن الخلل والقصور، للنهوض من جديد وتحقيق وعي حضاري قادر على صناعة النهضة.

2 / سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة للدكتور حسين شرفة

والذي احتوى على مقدمة وتمهيد وثلاثة أبواب ثم خاتمة، وقد تعرض المؤلف في التمهيد للمفاهيم الواردة في العموان، أما الباب الأول؛ فقد كان بمثابة دراسة نظرية للسنن الإلهية؛ من حيث تعريفها وإبراز أهميتها، وبيان أنواعها، وخصائصها، ومن حيث تقديم الأساليب وصيغ القرآن في عرضها.

واشتمل الباب الثاني وهو تطبيقي والحامل لعنوان: " الإيمان وأثره في إحياء الأمم " فقد خصه لعنصر الإيمان باعتباره الطرف الأول في المعادلة الحضارية، وشمل بذلك فصلا يتكلم عن أثر الفكرة الدينية في حياة الأمم، وآخر من أصول العقيدة الإسلامية وأثرها في حياة الأمم.

أما الباب الثالث والأخير وهو أيضا تطبيقي، فكان موسوما ب " العمل الصالح وأثره في إحياء الأمم " باعتباره الطرف الثاني في المعادلة الحضارية في ضوء الكتاب والسنة، وتطرق فيه المؤلف لحقيقة العمل الصالح ولدور الأعمال القلبية وأثرها في حياة الأمم، كما بين ما للشعائر التعبدية من فوائد تربوية جمة، ثم انتقل للكلام عن التكافل الاجتماعي ، وأفرد الفصل الأخير من هذا الباب للحديث عن الاستخلاف في الأرض.

وختم الكتاب بتقديم خلاصة لأهم النتائج التي توصل إليها.

3/ علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي للدكتور أبو اليسر رشيد كهوس

لكونه تضمن دراسة علمية وافية عن السنن الإلهية وذلك في تسعة مباحث، وقد وقف فيه المؤلف في المبحث الأول؛ مع تعريف وتأصيل للسنن الإلهية، وفي المبحث الثاني حدد أقسام السنن الإلهية، وخصص المبحث الثالث لإيضاح خصائص السنن الإلهية، بينما جاء المبحث الرابع مبينا مقاصد السنن الالهية وآثارها، ثم في المبحث الذي يليه؛ عين

المؤلف القواعد الكلية التي تبني عليها السنن الإلهية، وفي المبحث السادس ذكر الكتاب دواعي الاهتمام بالسنن الإلهية.

أما المبحث السابع فقد أفرده للتحدث عن الوعي العملي بالسنن الإلهية في عهد النبوة والخلافة الراشدة، وكذلك عند قدماء علماء المسلمين ، وقدم الكاتب في المبحث الثامن تفصيلا مهما عن منهج القرآن في عرض السنن الإلهية؛ سواء من خلال أساليبه وصيغه؛ أو سياقاته، وكذلك أوضح منهج السنة النبوية الشريفة في عملية الاستمداد؛ كعرض قصص السابقين ، وضرب الأمثال النبوية... ، وأشار أيضا إلى السيرة النبوية والمنهج المتبع فيها الاستمداد السنن الإلهية؛ والذي يعتمد على عدة آليات منها: استحضار مقاصد الشريعة في عملية الاستمداد، واستقراء النصوص القرآنية المتعلقة بالسيرة النبوية، وكذلك استقراء نصوص الحديث الخاصة بسيرة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتتبع كليات السيرة وجزئياتها للوقوف على السنن الإلهية.

واختتم الكتاب بسرد نماذج مهمة من السنن الإلهية؛ كسنة الله في تغيير النعم، وسنة الله في الأسباب والمسببات، ثم سنة الله في الاختلاف.

4/ السنن الإلهية في الحياة الإنسانية، و أثر الإيمان في العقيدة والسلوك، تأليف شريف الشيخ صالح أحمد الخطيب

وفي هذه الدراسة تناول الكاتب السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، وقد كانت مصادره في هذه الدراسة جمع النصوص من الكتاب والسنة المتعلقة بكل سنة من السنن في موضع واحد ثم دراسة هذه النصوص دراسة تحليلية مستعينا بكتب التفسير وشروح الحديث بحيث يستخلص من هذه الدراسة تقرير السنة وطبيعتها وأسبابها ونتائجها، وأثر الإيمان فيها والاعتبار في سلوك المؤمنين بحيث انتهت هذه الدراسة إلى أن أصبحت جانبا من جوانب التفسير الموضوعي لكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد كانت خطته في هذه الدراسة أن قسمها إلى مقدمة وبابين وخاتمة؛ فقد بين فيها أهمية موضوع السنن الإلهية ودوافع الكتابة فيه كما تحدث فيها عن بعض الصعوبات التي واجهته في دراسته وذكر فيها منهج البحث. أما الباب الأول فموضوعه السنن الإلهية: مفهومها، وخصائصها وعلاقتها بالأسباب والقدر وقد تضمن هذا الباب ستة فصول:

الفصل الأول التعريف بالسنة لغة واصطلاحا، والثاني أساليب القرآن الكريم في بيان وتقرير السنن الإلهية في الحياة الإنسانية ، والثالث خصائص السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وفيها ذكر لأهم الخصائص كالثبات والشمول والعموم والحكمة والعدل والواقعية، والرابع السنن الإلهية في الحياة الإنسانية والقدر، والخامس السنن في الحياة الإنسانية والأسباب، والسادس بين السنن الكونية والإنسانية.

ثم الباب الثاني السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وقد تحدث فيه عن هذه السنن في ثمانية فصول:

الأول: سنة الله تعالى في الهداية والضلال، الثاني في سنة الله في الابتلاء والتمحيص، الثالث في سنة الله في الرخاء والشدة، والرابع سنة الله في التغيير وقد بين فيه أن التغيير في أحوال الأمم يقوم على أساس تغيير ما بنفوس أفرادها...، والخامس سنة الله في التدافع وفيه أوضح أن التدافع والصراع بين الناس أمر فطري وسنة جارية منذ خلق الله البرية، والسادس في سنة الله في النصر والهزيمة وفيه ذكر أسباب النصر وأسباب الهزيمة المعنوية والمادية، والفصل السابع سنة الله في إظهار الحق وإزهاق الباطل، والثامن سنة الله في عقاب الأمم وفيه شرح الأسباب المستوجبة لذلك ثم تحدث عن سنة الله في عقاب الأمة الإسلامية إذا حادث عن منهجه.

5/ السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية للدكتور عبد الكريم زيدان:

تناول فيه مصنفه سبع عشرة سنة وردت في الكتاب والسنة، مما يخص الأمم والأفراد، وهو يتميز بالعرض الجيد، والتقسيم المترابط، وتوثيق المادة من كتب التفسير والحديث، ويميل إلى الجانب التطبيقي أكثر منه النظري، ولعل السبب في ذلك أنه خرج في صورة كتاب وليس رسالة تضع التأصيل والتنظير في المقام الأول.

وقد أفدت من هذا الكتاب منهج عرض السنة وكيفية الإفادة منها، وكذا الوقوف على بعض النقاط فيما تناوله من سنن أوردتها في هذه الدراسة.

6 / كتاب" أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق " الدكتور أحمد كنعان.

وقد قسمه المؤلف إلى مدخل وثلاثة فصول، وناقش في المدخل العلاقة الرابطة بين الجهد البشري والسنن، وتعرض في الفصل الأول لأسباب اهتمامه بالحديث عن السنن، مع بسط دعوة القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف للسير في الأرض، والنظر في آيات الله أو سننه للاهتداء بها في التعامل مع مخلوقات الله تعالى التي تخضع جميعا لهذه السنن، وذكر في هذا الفصل أيضا خصائص السنن الإلهية، كما تناول بالتفصيل تلك الظروف والحالات التي يحصل فيها خرق للسنن، أو الخروج بها من مألوف البشر.

أما الفصل الثاني فقد خصصه لمناقشة عدد من القضايا الهامة، التي لها علاقة مباشرة بالأزمة الحضارية الراهنة؛ كقضية الحرية والعلم... إلخ.

وجاءت خاتمة البحث ملخصة لما جاء في البحث، ومبينة لأهم النتائج التي توصل إليها.

7 / تفسير القرآن الحكيم (المسمى تفسير المنار) للشيخ محمد رشيد رضا

ويندرج هذا التفسير تحت التفسير الأدبي الاجتماعي، وهو لون من ألوان التفسير ظهر في العصر الحديث، أراد به مصنفه البعد عن المباحث التحليلية الدقيقة، والمصطلحات والتخصصات العميقة التي ربما تقف حائلا دون هداية الناس إلى المراد من إنزال القرآن الكريم.

فتناول بيان النص القرآني بطريقة تظهر مواضع دقته وبلاغته، بأسلوب شائق جذاب، ثم طبق ذلك النص على ما في الكون من نظم العمران وسنن الاجتماع، بما يظهر للناس أن سعادتهم في الدنيا وفوزهم في الآخرة رهن العمل بهذا القرآن.

وقد تميز هذا التفسير باعتماده على المعقول والمنقول معا، ولذلك قل أن يستشهد بالإسرائيليات، بل حاول واضعه الابتعاد عن الأحاديث الموضوعة والضعيفة.

وتميز - أيضا - بأن صاحبه ضمنه أقوال الشيخ محمد عبده الذي اعتنى كثيرا بالتنبيه إلى أهمية الوقوف على سنن الله تعالى في الخلق، بل عد ذلك شرطا من الشروط المفسر لكتاب الله عز وجل كما بينا ذلك في آخر القسم الأول من هذه الدراسة.

واتسم هذا التفسير بإظهار ما في القرآن الكريم من شفاء لكل الأمراض الاجتماعية؛ ولذا أفدت منه كثيرا في استخراج بعض السنن وكيفية تناولها بالبحث والدراسة وهو يشير في مواضيع جمة إلى كثير من سنن الاجتماع، ولكن مما يؤسف له أن هذا التفسير لم يكتمل، إذ اخترمت المنية صاحبه بعد الانتهاء من تفسير الجزء الثاني عشر من القرآن الكريم.

8 / تفسير روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني للإمام الآلوسي

يعد هذا التفسير مدرسة وحده؛ إذ جمع فيه واضعه - رحمه الله تعالى - بين التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي، ونقد كثيرا من الروايات الواردة فيه بميزان الجرح والتعديل، فضلا عن أنه حوى كثيرا من العلوم اللغوية والشرعية.

وهو أول التفاسير التي أفدت منها في الوقوف على بعض السنن الإلهية في الأمم والأفراد، حيث كان يصرح في مواضع كثيرة بأن هذه الآية أو تلك تدل على سنة كذا، وإن لم تشتمل الآية على لفظ " سنة " أو " سنن " أو مشتقاتهما.

ومما أثرى هذا التفسير وأغناه: أنه جمع بين ثناياه أطرافا كثيرة من كتب المفسرين قبله، سواء أكانوا من أهل التفسير بالمأثور أم من أهل التفسير بالرأي، بل إن صاحبه وقف على شروح وحواش عديدة ما زالت مخطوطة أو في طي النسيان أو في عداد المفقودة.

وقد أفدت منه أيضا في اقتناص بعض النكات واللطائف البلاغية والأسلوبية التي تفيد موضوع السنن.

9 / تفسير في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب رحمة الله عليه

نظرا لنظرته التجديدية المختلفة عن باقي التفاسير، ونظرته التفاعلية مع الواقع والحياة الإنسانية كلها؛ بل الكون كله، والتي تشمل الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي، ونظرا أيضا لتنبيه العقل المسلم إلى مفتاح السنن الاجتماعية التي تحكم كل حركة من حركة هذا الوجود الكوني، واستطاع أن يؤكد بأسلوب شيق ومتميز؛ على صلاحية القرآن- الخالد والمهيمن - لكل زمان ومكان، وأنه هو الملهم والموجه والمحرك للبشرية والأجيال المتعاقبة في كل فترة من فترات الحياة وفي كل مجال من مجالاته، وأنه الكتاب المرن القادر على استيعاب جديد كل عصر وكل مصر.

- وأما بحثي هذا؛ فهو يسعى إلى إعطاء رؤية جديدة للدراسات السننية، وذلك بإبراز جانبها المقاصدي، من خلال ثلاثة أبعاد:

الأول: إبراز مقاصد السنن الاجتماعية في بعدها العقدي والتربوي.

الثاني: إبراز مقاصد السنن الاجتماعية في بعدها الاجتماعي والحضاري.

الثالث: إبراز مقاصد السنن الاجتماعية في بعدها السياسي

وسأقتصر في هذه الدراسة على " **السنن الاجتماعية** "؛ للحاجة الماسّة إلى فهم وإدراك مقاصد هذا النوع من السنن، خاصة والأمة الإسلامية تعيش فترات عصيبة في شتى المجالات.

- صعوبات البحث:

لا يخلو بحث علمي من صعوبات تعتري الباحث أثناء إعداد البحث وإنجازه، وقد تمثلت تلك الصعوبات لديَّ في أمرين بالخصوص:

– **أولا**: صعوبة الموضوع، وذلك راجع بالأساس لتشعب المادة العلمية وتوسعها؛ لأن مجال السنن الاجتماعية مجال فضفاض يصعب حصره أو الإحاطة به.

– **ثانيا**: ضيق الوقت، وقلة المصادر والمراجع العلمية، وذلك راجع للظرفية التي أنجز فيها البحث، والتي تزامنت مع جائحة كورونا (covid - 19)، مما صعب عليّ عملية التنقل للبحث عن المصادر والمراجع في المكتبات، ولذلك اضطررت للاعتماد في كثير من الأحيان على الكتب الرقمية (كتب بصيغة pdf).

- خطة البحث:

نظرا لما تقتضيه طبيعة البحوث الأكاديمية وتتطلبه من قيامها على خطة مُتجانسة البناء ومُحكمة الصياغة، تُعين على تحقيق الأهداف المرْجُوَّة والإجابة عن الإشكالات المسطَّرة، فقد آثرت أن يكون هذا البحث في: **مقدمة**، و**تمهيد**، و**فصلين**، ثم خاتمة؛ وقد اشتمل كل فصل على مبحثين، وكلُّ مبحثٍ اندرجت تحته ثلاثة مطالب، وتفصيل ذلك كالآتي:

بالنسبة للمقدمة فقد أشرت فيها إلى أهمية الموضوع، والأسباب التي دفعتني لاختياره، وكذلك الإشكالات التي سيجيب عنها البحث، والأهداف المَرْجُو تحقيقها منه، بالإضافة إلى أهم الدراسات السابقة حول الموضوع، وكذا المنهج المتبع في البحث، والصعوبات التي واجهتها أثناء إعداده، ثم ختمت هذه المقدمة ببيان الخطة المعتمدة في إنجاز هذا البحث.

وأما التمهيد فهو عبارة عن **مدخل مفاهيمي خصصته لبيان أهم المصطلحات والمفاهيم المكونة لحدود الدراسة**، وذلك من خلال مطلبين اثنين: **الأول**: حول تعريف المقاصد، لغة واصطلاحا، **والثاني**: حول مفهوم السنن الاجتماعية.

وأما **الفصل الأول** فهو بعنوان:" **السنن الاجتماعية: أهميتها، فوائدها، خصائصها، ونماذج منها** "، وهو يمثل الجانب النظري من البحث، ويضم مبحثين اثنين: **المبحث الأول حول: أهمية السنن الاجتماعية، وفوائدها، وخصائصها**، وفيه ثلاثة مطالب: المطلب الأول: أهمية العلم بالسنن الاجتماعية، والمطلب الثاني: ثمرة وفوائد السنن الاجتماعية، والمطلب الثالث: خصائص السنن الاجتماعية. ثم **المبحث الثاني: ذكرت فيه بعضا من نماذج السنن الاجتماعية في ضوء الآيات القرآنية**، وذلك من خلال ثلاثة مطالب: الأول: حول سنة التغيير، والثاني: حول سنة الاستدراج والإملاء ، والثالث: حول سنة الاستخلاف.

ثم **الفصل الثاني** بعنوان:" **مقاصد السنن الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم** "، ويعتبر بمثابة الشق التطبيقي لهذه الدراسة، ويشتمل على ثلاثة مباحث: **المبحث الأول: مقاصد السنن الاجتماعية في بعدها العقدي والتربوي**، وفيه أربعة مطالب: المطلب الأول: حول مقصد الوصول إلى معرفة الخالق وتحقيق التوحيد، والمطلب الثاني: حول مقصد السعي لنيل الفوز الدنيوي والأخروي، والمطلب الثالث: حول مقصد إدراك حقيقة الإعجاز القرآني وصدق الرسالة المحمدية. والمطلب الرابع: : حول مقصد تزكية النفس البشرية وتربيتها، ثم **المبحث الثاني حول: مقاصد السنن الاجتماعية في بعدها الاجتماعي والحضاري**، وتناولته من خلال أربعة مطالب أيضا: المطلب الأول: حول مقصد تحقيق مبدأ الاستخلاف والعمران من خلال حتمية التدافع، والمطلب الثاني: حول مقصد الإصلاح الاجتماعي، والمطلب الثالث: حول مقصد السير في الأرض للتفكر وأخذ العبر، ثم المطلب

الرابع: حول مقصد تحقيق الأمن والاستقرار المجتمعي، ثم **المبحث الثالث حول**: **مقاصد السنن الاجتماعية في بعدها السياسي**، وتناولته من خلال مطلبين اثنين؛ المطلب الأول: حول مقاصد السنن الاجتماعية من خلال قصة سيدنا يوسف عليه السلام، ثم المطلب الثاني: حول مقاصد السنن الاجتماعية من خلال واقعة سقوط الأندلس.

وأما الخاتمة فقد تضمنت أهم نتائج البحث المتوصل إليها.

- كلمة شكروتقدير

وختاما لابد أن أسجل شكري لأستاذي الفاضل الدكتور أبو اليسر رشيد كهوس الذي قبل الإشراف على بحثي، والذي كان له السبق والفضل في تنبيه الطلبة إلى هذا العلم الجليل، فجزاه الله عنا خير الجزاء، وبارك في عمره وعمله وعلمه.

وبالله التوفيق والسداد.


Manar al islam
islamanar.com




تمهيد:

مدخل مفاهيمي في بيان أهم المصطلحات والمفاهيم المكونة لحدود الدراسة

وفيه مطلبان:

-المطلب الأول: تعريف المقاصد، لغة واصطلاحا.

-المطلب الثاني: مفهوم السنن الاجتماعية.




تعتبر دراسة المفاهيم مفتاحا لفهم أي موضوع من الموضوعات، بالإضافة إلى " ما يشكله بناء المفاهيم وخاصة المفاهيم التي وردت في القرآن الكريم من دور في الحفاظ على كينونة الأمة وتأهيلها للعمران الاجتماعي وإرشادها للتطور العلمي، وإسعافها في الارتداد إلى موقعها الأصلي في القيادة والريادة "[1].

لذلك فمن المهم قبل الخوض في تفصيلات هذا الموضوع الموسوم ب: "**مقاصد السنن الاجتماعية في القرآن الكريم**" أن نقف مع العناصر المكوّنة لعنوانه، وهي: "**مقاصد**"، و"**السنن الاجتماعية** ".

وسيكون البحث في مدلولات هذه المصطلحات من الناحيتين؛ اللغوية والاصطلاحية، بالرجوع إلى المعاجم والمؤلفات الخاصة في هذا الباب، للتعرف على حقيقة هذا المركب الإضافي " **مقاصد السنن الاجتماعية** " الذي يعتبر فهم مدلوله بمثابة مفتاح لفهم مضامين موضوع البحث بشكل عام.

وسأتناول هذه المصطلحات المكونة لعنوان الموضوع من خلال المطلبين التاليين:

- **المطلب الأول: تعريف المقاصد، لغة واصطلاحا.**
- **المطلب الثاني: مفهوم السنن الاجتماعية.**

(1) السنن الاجتماعية ومنطق التدافع والتعارف الحضاري، بوعبيد صالح الازدهار، الناشر: دار الكلمة / مصر - القاهرة، ط1، السنة:1435هـ-2014م، ص: 9، - بتصرف -.

المطلب: الأول: تعريف المقاصد

أولا: تعريف المقاصد لغة:

بالرّجوع إلى المعاجم اللغوية نجد أن كلمة " المقاصد "، وهي جمع " مقصد " ترجع في أصلها اللغوي إلى مادة " قصد "، وقد تعدّدت معانيها في لغة العرب:

- قال ابن فارس في مقاييس اللغة:" القاف والصاد والدال أصول ثلاثة، يدل أحدها على إتيان شيء وأمه، والآخر على اكتناز في الشيء. فالأصل: قصدته قصدا ومقصدا "[1].

- وجاء في لسان العرب: المقصد:" استقامة الطريق، ومن ذلك قوله تعالى:﴿ وَعَلَي أَللَّهِ قَصْدُ أُلسَّبِيلِ﴾ [سورة النحل: الآية 9]؛ أي:" على الله تبيين الطريق المستقيم والدعاء إليه بالحجج والبراهين الواضحة "[2].

والقصد:" العدل، والقصد في الشيء: خلاف الإفراط وهو ما بين الإسراف والتقتير "[3].

- قال الرازي في مختار الصحاح:" إتيان الشيء وبابه ضرب تقول: قصده وقصد له، وقصد إليه، كله بمعنى واحد "[4].

وصفوة القول إنه عند النظر إلى مجموع معاني كلمة " قصد " - التي سلف ذكرها - نجد أنها إذا أطلقت فالمراد منها ما يلي:

---

(1) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ) ، المحقق: عبد السلام محمد هارون ، الناشر: دار الفكر، السنة: 1399هـ - 1979م. مادة (ق ص د)، (95/5).

(2) لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت: 711هـ)، بيروت، الناشر: دار صادر، ط3، السنة:1414هـ.، مادة: (ق ص د)، (353/3).

(3) المصدر نفسه، (353/3).

(4) مختار الصحاح، زين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت:666هـ) تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت - صيدا، ط5، السنة: 1420هـ/1999م، مادة: (ق ص د)، (254/1).

1/ إتيان الشيء وأمّه والتوجه إليه، والاعتماد عليه، والنهوض نحوه.

2/ استقامة الطريق وسهولته وقربه.

3/ العدل، والتوسط بين الإفراط والتفريط.

وكلها معان متقاربة فيما بينها.

ثانيا: تعريف المقاصد اصطلاحا:

أ/ مفهوم المقاصد عند المتقدمين:

لا شك أن المتقدمين من العلماء كان لهم اهتمام كبير ببيان المقاصد التي سعت الشريعة إلى تحقيقها في كل حكم من أحكامها، إلا أنهم لم يذكروا مفهوما محددا أو تعريفا لهذا المصطلح؛ لوضوح ذلك عندهم وعدم الحاجة إليه، وإنما وجدت منهم عبارات لها دلالة وتعلق ببعض أحكام المقاصد الشرعية، ومن ذلك:

- ذكرهم للكليات المقاصدية الخمس وهي: حفظ الدين، والنفس، والعقل، والنسل، والمال.

- وأيضا تقسيم المصالح إلى: ضرورية، وحاجية، وتحسينية.

- وتأكيدهم أن الشريعة جاءت أساسا لرعاية مصالح العباد؛ وذلك بجلب المنافع لهم ودرء المفاسد عنهم، وأن دفع الضرر والمفسدة مقدم على جلب النفع والمصلحة، وغيرها من القضايا المقاصدية.

فالشاطبي[1] - رحمه الله - نفسه رغم كونه أول من أفرد علم المقاصد بالتأليف من خلال كتابه: (الموافقات)، بل وتوسع فيها بما لم يفعله أحد قبله، إلا أنه أيضا لم يورد تعريفا اصطلاحيا للمقاصد.

ب/ مفهوم المقاصد عند المتأخرين:

---

(1) هو: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي، الشهير بالشاطبي، أصولي فقيه مفسر لغوي، ولد بعد سنة (720هـ) بغرناطة، وكان من أئمة المالكية بها وتوفي بها سنة (790هـ). وله تصانيف مفيدة منها: الموافقات في أصول الفقه، الإفادات والإنشادات، الاعتصام، شرح ألفية بن مالك، وغيرها، الثابت والمتغير عند الشاطبي (ص: 1-92).

تميز علم المقاصد عند المتأخرين بعناية كبيرة، فأصبح علما قائما بذاته، له مصطلحاته، وتقسيماته الخاصة، وما يتبع ذلك من الخصائص التي تميز كل علم مستقل عن غيره، وهكذا نجد أن المتأخرين أوردوا عدة تعريفات للمقاصد، وهي متقاربة من حيث المعنى، وإن اختلفت في المبنى، ومن ذلك:

- تعريف الدكتور محمد الطاهر بن عاشور حيث عرفها بقوله:" هي المعاني والحكم الملحوظة للشارع في جميع أحوال التشريع أو معظمها، بحيث لا تختصّ ملاحظتُها بالكون في نوع خاص من أحكام الشريعة "[1].

- تعريف الدكتور أحمد الريسوني:" هي المعاني والغايات والآثار والنتائج، التي يتعلق بها الخطاب الشرعي والتكليف الشرعي، ويريد من المكلفين السعي والوصول إليها "[2].

- تعريف الدكتور علال الفاسي حيث قال في تعريفها:" هي الغاية منها - أي من الشريعة -؛ والأسرار التي وضعها الشارع عند كل حكم من أحكامها "[3].

- تعريف الدكتور نور الدين الخادمي، حيث عرّفها بأنها:" المعاني الملحوظة في الأحكام الشرعية والمترتبة عليها، سواء أكانت تلك المعاني حكما جزئية، أم مصالح كلية، أم سمات إجمالية، وهي تتجمع ضمن هدف واحد، وهو تقرير عبودية الله ومصلحة الإنسان في الدارين "[4].

ومن مجموع ما سبق من التعريفات، نستخلص تعريفا جامعا للمقاصد مفاده أن المقاصد: هي الغايات والحكم التي ابتغى الشارع الوصول إليها من خلال تشريعه للأحكام، تحقيقا لمصالح الناس سواء على مستوى الفرد أو المجتمع، عاجلا وآجلا.

---

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ)، المحقق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، 1425 هـ - 2004 م، (165/3).

(2) مدخل إلى مقاصد الشريعة، الدكتور أحمد الريسوني، دار الكلمة للنشر والتوزيع، الطبعة: 1، السنة: 1431هـ-2010م، ص: 7.

(3) مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، دار الغرب الإسلامي، ط: 5، 1993م، ص: 7.

(4) الاجتهاد المقاصدي، نور الدين الخادمي، كتاب الأمة، العدد 65، سنة 1419 هـ ، وزارة الأوقاف، قطر ، ص: 53.

المطلب الثاني: مفهوم السنن الاجتماعية:

لا يمكن الحديث عن مفهوم " السنن الاجتماعية " باعتباره مركبا إضافيا إلا ببيان مفهوم السنن (جمع سنة) أولا.

أولا: تعريف السنة لغة واصطلاحا:

1/ السنة لغة:

بالرجوع إلى المعاجم العربية؛ نجد أن لفظة " السنة " لها دلالات متنوعة، وهذا التنوع راجع بالأساس إلى تنوع السياقات التي وردت فيها كلمة " السنة "، وهذه بعض منها:

- قال ابن فارس في مقاييس اللغة:" السنة، وهي السيرة. وسنة رسول الله عليه السلام: سيرته "[1].

- وجاء في لسان العرب لابن منظور:" سنة الله: أحكامه وأمره ونهيه... وسنها الله للناس: بينها، وسن الله سنة، أي بين طريقا قويما" وقال أيضا: " والسنة: السيرة، حسنة كانت أو قبيحة " [2].

- قال الرازي[3] في مختار الصحاح:" السنن: الطريقة يقال: استقام فلان على سنن واحد. ويقال: امض على (سَنَنِكَ) و (سُنَنِكَ) أي: على وجهك. وتنح عن (سنن) الطريق و(سُنَنِهِ) و (سِنَنِهِ) ثلاث لغات، و (السنة):السيرة "[4]

---

(1) مقاييس اللغة، لابن فارس، كتاب " السين "، (61/3).

(2) لسان العرب، لابن منظور، مادة:" سنن "، (13/ 225).

(3) هو: فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي، الشافعي، مفسر ومتكلم وفقيه وأصولي وفيلسوف، ولد بالري سنة (543هـ) وتوفي بهراة سنة (606هـ) ، له مصنفات عديدة في التفسير وأصول الدين وأصول الفقه، وغير ذلك. وأهمها: التفسير الكبير، المحصول في علم أصول الفقه، البداية والنهاية (55/3)، طبقات الشافعية لابن السبكي (25/5).

(4) مختار الصحاح للرازي، مادة:" سنن "، ص: 155.

- قال الراغب الأصفهاني[1]:" السنن؛ جمع سنة، وسنة الوجه: طريقته، وسنة النبي: طريقته التي كان يتحرَّاها، وسنة الله تعالى: قد تقال لطريقة حكمته، وطريقة طاعته "[2].

- وقال أحمد الفيومي السنة:" الطريقة، والسنة السيرة حميدة كانت أو ذميمة والجمع سنن مثل: غرفة وغرف "[3].

- وقال الجرجاني:" السُّنّة في اللغة: الطريقة، مرضية كانت أو غير مرضية "[4].

وخلاصة هذه التعريفات أن " السنة " تطلق في لغة العرب على أمور عدة، بحسب السياق الذي وردت فيه، وبيان ذلك كالآتي:

1/ فالسنة إذا وردت مفردة فإنها تطلق بمعنى: الطريقة، والسيرة. والطبيعة.
2/ وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم سيرته، ومنهجه، وطريقته الذي أُمرنا بالتَّأَسي بها.
3/ أما إذا أضيفت إلى لفظة الله، أي سنة الله تقال: لطريقة حكمته، وطريقة طاعته جلا وعلا.
4/ سنة فلان؛ أي أنه أول من ابتدأها وتابعه الناس عليها.

2/ السنة في الاصطلاح:

يختلف المعنى الاصطلاحي للسنة باختلاف المجال العلمي الذي استعملت فيه؛ فهي عند الأصوليين بمعنى مغاير لمعناها عند المحدثين والفقهاء والمتكلمين، وأيضا دلالتها في

(1) هو: أبو القاسم، الحسين بن محمد بن المفضل الأصفهاني، أو الأصبهاني، المعروف بالراغب، وقد ترجمه السيوطي في بغية الوعاة باسم " المفضل بن محمد " وقد سكن بغداد، وكان من أئمة السنة على حسب ما قال الفخر الرازي. توفي سنة (502هـ). من مؤلفاته: جامع التفاسير ، حل متشابهات القرآن، المفردات بغية الوعاة، سير أعلام النبلاء (120/18). مقدمة كتاب الراغب ومنهجه في كتاب المفردات الأعلام (279/2).

(2) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت425هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الناشر: دار القلم، دمشق، ط3، السنة:1423هـ-2002م، مادة: (سنن)، ص: 429

(3) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، للإمام أحمد بن محمد الفيومي (ت770هـ)، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، مادة: (سنن)، (291/1).

(4) التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت: 816هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت - لبنان، الطبعة: 1، 1403هـ -1983م، (122/1).

القرآن الكريم مختلف عن دلالتها في الاصطلاح الأصولي والفقهي...، لذلك سأحاول التعرف على مختلف دلالات هذا المصطلح، مع التركيز على دلالته في القرآن الكريم؛ بغية التوصل لمعنى لفظ " **السنن** " المراد في هذا البحث.

أولا: السنة في اصطلاح المحدثين:

أطلق المحدثون لفظ السنة على " الطريقة الدينية التي سلكها النبي صلى الله عليه وسلم في سيرته المطهرة "[1]، وعلى " ما أثر عن النبي صلى الله عليه وسلم من قول أو فعل أو صفة خَلْقِيَّة أو خُلُقِيَّة أو سيرة، سواء كان قبل البعثة أو بعدها "[2]، فكانت السنة بهذا المعنى " مرادفة للحديث النبوي "[3].

ثانيا: السنة في اصطلاح الأصوليين:

عرفها الأصوليون بأنها:" كل ما صدر عن النبي صلى الله عليه وسلم غير القرآن الكريم، من قول أو فعل أو تقرير، مما يصلح أن يكون دليلا لحكم شرعي "[4]، ويعتبر علماء الأصول أن السنة " أصل من أصول الأحكام الشرعية، ودليل من أدلتها يلي الكتاب في الرتبة "[5]، وتشكل بذلك " المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي "[6].

(1) علوم الحديث ومصطلحه - عرضٌ ودراسة، د. صبحي إبراهيم الصالح (المتوفى: 1407هـ) ، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت - لبنان ،الطبعة: الخامسة عشر، السنة: 1984م، ص: 6.

(2) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي - بيروت، ط: 2، السنة: 1396هـ-1976م، ص: 47.

(3) أصول الحديث علومه ومصطلحه، محمد عجاج الخطيب، دار الفكر لبنان - بيروت، ط:4، السنة: 1401هـ-1981م ، ص: 19.

(4) السنة قبل التدوين، محمد بن محمد تميم بن صالح بن عبد الله الخطيب أصل هذا الكتاب: رسالة ماجستير من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان الطبعة: الثالثة، السنة: 1400 هـ - 1980م، ص: 16.

(5) حجية السنة، عبد الغني عبد الخالق، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، دار الوفاء - المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: 1407هـ - 1987م، ص: 68.

(6) السنن الإلهية في السيرة النبوية، أبي اليسر رشيد كهوس، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، السنة:2010م، ص: 46.

ثالثا: السنة في اصطلاح الفقهاء:

والسنة في الاصطلاح الفقهي هي:" كل ما ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب، وتقابل الواجب وغيره من الأحكام الخمسة، كما تطلق على ما يقابل البدعة، كقولهم: فلان من أهل السنة "[1].

رابعا: السنة في اصطلاح المتكلمين:

تطلق " على آراء أهل السنة والجماعة الذين يتمسكون بالعقيدة الصحيحة الواردة عن السلف ويحاربون البدعة، ومن ثم فهم يستخدمونها فيما يقابل الشيعة "[2].

وأهل السنة والجماعة هم:" جماعة كبيرة من السلف يثبتون لله تعالى الصفات الأزلية ويدعون السلف الصالح "[3].

خامسا: السنة في اصطلاح القرآني:

أنزل الله تعالى وتقدس القرآن الكريم بلسان عربي مبين،[4] وكان معجزا للفصحاء منهم؛ إذ إنهم يفهمون مدلوله ومقاصده، ومع ذلك لا يستطيعون الإتيان بمثله، وعجزوا عن الوقوف أمام تحديه الوارد في آياته [5]؛ قال تعالى:﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اِ۬للَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ اُ۬لنَّارَ اَ۬لَّتِي وَقُودُهَا اَ۬لنَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۝ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ۝ ﴾.[البقرة: 22-23]، وقال سبحانه: ﴿ قُل لَّئِنِ اِجْتَمَعَتِ اِلْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا اَ۬لْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ۝ ﴾ [الإسراء:88].

(1) إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (المتوفى: 1250هـ) المحقق: الشيخ أحمد عزو عناية، قدم له: الشيخ خليل الميس والدكتور ولي الدين صالح فرفور الناشر: دار الكتاب العربي - دمشق، الطبعة الأولى، السنة: 1419هـ - 1999م، (95/1) - بتصرف -.

(2) السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول وضوابط، مجدي محمد عاشور، دار السلام - القاهرة، ط:1، السنة: 1413هـ-1993م، ص: 29

(3) الرائد في علم العقائد، العربي علي اللوه، مطبعة الهداية - تطوان، 1995م، ص: 11 - بتصرف -.

(4) السنن الإلهية في السيرة النبوية، أبو اليسر رشيد كهوس، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، السنة:2010م ، ص: 42.

(5) السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول وضوابط، مجدي عاشور، ص: 31.

" وقد ورد ذكر لفظة " سنة " في الذكر الحكيم بجميع صيغها ستة عشر مرة؛ وثلاثة عشر مرة بصيغة " سنة " ومرتين بصيغة الجمع " سنن "، وبصيغة " سنتينا " مرة واحدة "[1].

ولفهم دلالة " السنة " في السياق القرآني، قمت بالرجوع إلى بعض التفاسير المختلفة استقراءً وتتبعا، كتفسير:" جامع البيان في تأويل آي القرآن "، للإمام الطبري، وتفسير " الجامع لأحكام القرآن "، للإمام القرطبي، وتفسير " التيسير في أحاديث التفسير "، للمكي الناصري، وتفسير الشيخ محمد متولي الشعراوي، لرصد بعض معانيها، وذلك من خلال ثلاثة آيات كريمات كنماذج تتضمن مصطلح " السنة "، وهي:

1 - قوله عز وجل:﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي اِ۬لَارْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ اُ۬لْمُكَذِّبِينَۖ ﴾ [سورة آل عمران: الآية 137].

2 - قوله سبحانه:﴿ يُرِيدُ اُ۬للَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ اَ۬لذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْۖ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌۖ﴾ [سورة النساء: الآية 26].

3 - قوله تعالى:﴿ سُنَّةَ اَ۬للَّهِ فِي اِ۬لذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اِ۬للَّهِ تَبْدِيلاٗۖ﴾ [سورة الأحزاب: الآية 62].

أولا: تفسير الإمام الطبري[2]:

1 - يقول في تفسيره لآية آل عمران، في معنى " سنن "؛ يعني:" مثُلات سيرَ بها فيهم وفيمن كذَّبوا به من أنبيائهم الذين أرسلوا إليهم، بإمهالي أهلَ التكذيب بهم، واستدراجي إياهم، حتى

(1) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط: 2، السنة: 1411هـ-1991م، ص: 367

(2) هو: أبو جعفر محمد بن جرير بن يزيد الطبري، مفسر مقرئ محدث مؤرخ فقيه أصولي مجتهد، ولد بطبرستان آخر سنة (224هـ) أو أول سنة (225هـ)، وطوف الأقاليم واستوطن بغداد، وتوفي ليومين بقيا من شوال سنة (310هـ). من تصانيفه: جامع البيان في تأويل آي القرآن، وتاريخ الأمم والملوك، آداب القضاء والمحاضر والسجلات، تاريخ بغداد (162/2)، تهذيب الأسماء واللغات (78/1)، سير أعلام النبلاء (267/14).

بلغ الكتاب فيهم أجله الذي أجَّلته الإدالة[1] أنبيائهم وأهل الإيمان بهم عليهم، ثم أحللت بهم عقوبتي، وأنزلتُ بساحتهم نِقَمي، فتركتهم لمن بعدهم أمثالا وعبرًا "[2].

2 - ويقول في معنى " سنن " الواردة في آية النساء، سنن:" يعني: سُبل من قبلكم من أهل الإيمان بالله وأنبيائه، ومناهجهم "[3].

3 - وفي تفسيره لآية الأحزاب، يقول:" فلن تجد يا محمد لسنة الله تغييرًا "[4].

ثانيا: تفسير القرطبي[5]:

1 - يقول الإمام القرطبي في سياق تفسيره لآية آل عمران:"...والسنن جمع سنة وهي الطريق المستقيم. وفلان على السنة أي على طريق الاستواء، والسنة: الإمام المتبع المؤتم به، والسنة الأمة، والسنن الأمم "[6].

2 - وفي تفسير آية النساء:" معنى (يهديكم) يبين لكم طرق الذين من قبلكم من أهل الحق وأهل الباطل "[7].

---

(1) والإدالة: الغلبة. ودالت الأيام: دارت، والله تعالى يداولها بين الناس - القاموس المحيط، مادة " دول "(1001/1) -.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (المتوفى: 310هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، السنة: 1420 هـ - 2000 م، (228/7).

(3) المصدر نفسه،(209/8).

(4) المصدر نفسه،(484/20).

(5) هو: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي الأندلسي القرطبي المالكي، مفسر، كان من عباد الله الصالحين والعلماء العارفين الورعين في الدنيا، توفي سنة(671هـ). له تصانيف مفيدة، منها: الجامع لأحكام القرآن، والتذكرة بأحوال الموتى في الآخرة. طبقات المفسرين للسيوطي (ص: 92).

(6) الجامع لأحكام القرآن (تفسير القرطبي)، أبو عبد الله محمد شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، ط: 2، 1384هـ - 1964 م، (216/4).

(7) المصدر نفسه، (147/5).

3 - وفي تفسير آية الأحزاب يقول:" سن الله عز وجل فيمن أرجف بالأنبياء وأظهر نفاقه أن يؤخذ ويقتل ﴿ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ ؛ أي: تحويلا وتغييرا "[1].

ثالثا: التيسير في أحاديث التفسير:

1 - يقول الشيخ المكي الناصري[2] في سياق تفسيره لآية آل عمران:"... هناك مبدأ أساسي لا يختلف، هو أن لله سننا ثابتة في المجتمع تسير الحياة على مقتضاها مهما اختلفت القرون والأجيال، وفي طليعة هذه السنن والقوانين الثابتة سنن النصر وسنن الهزيمة "[3].

2 - لقد تولى الله عز وجل " تحديد ما هو حلال وما هو حرام في هذا الموضوع الخطير، إرشادا للمؤمنين من عباده وهداية لهم إلى أحسن الطرق وأفضل النظم، حتى يقفوا عند حدودها ولا يتجاوزوها "[4].

3 - أي : تأكيدا لناموس الحياة الذي عرفته البشرية من أقدم العصور، في الدفاع عن سلامتها ضد الأخطار المحدقة بها، وقيامها بعزل العناصر الهدامة، وتقليم أظفارها، كلما أصبح نشاطها يشكل خطرا محققا عليها "[5].

رابعا: تفسير الشعراوي:

1 - " والسنن هي: الطرق التي يصرف الله بها كونه بما يحقق مصلحة ذلك الكون؛ ليضمن للإنسان - السيد في هذا الكون - ما يحقق مصلحته، ومصلحة الإنسان تتمثل في أن يسود الحق في حياة الإنسان المختار كما ساد الحق في الكون المسيّر قبل الإنسان "[6].

---

(1) المصدر نفسه، (247/14).

(2) هو: الشيخ محمد المكي بن محمد اليمني بن سعيد الناصري، ولد بمدينة الرباط (1906م) درس في المغرب ومصر وفرنسا، شغل عدة مناصب، جمعت أحاديثه الإذاعية في تفسير " التيسير في أحاديث التفسير" له عدة مؤلفات، كان سلفيا ومن زعماء الإصلاح، توفي الشيخ رحمة الله عليه؛ سنة (1994م) الترجمة مقتبسة من تفسيره : " التيسير في أحاديث التفسير؛ 1/من 5 إلى 7، بتصرف ، وكذلك من مقال بعنوان: أعلام القرن الخامس عشر الهجري- الشيخ المكي الناصري، بتصرف، مركز الدراسات القرآنية - المملكة المغربية - الرابطة المحمدية للعلماء، 15 رجب 1436/ 4 ماي 2015م.

(3) التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري (المتوفى: 1414هـ)، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، السنة: 1405 هـ - 1985 م، (267/1).

(4) التيسير في أحاديث التفسير، محمد مكي الناصري، (331/1).

(5) المصدر نفسه، (5/158-159).

(6) تفسير الشعراوي - الخواطر، المؤلف: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، د:ط.ت. (1763/3).

2 - " سنن: أي الطرائق التي حُكموا بها، وماذا حدث لأهل الحق وماذا حدث لأهل الباطل "[1].

3 - " والسنة: هي الطريقة الفِطْرية الطبيعية المتواترة التي لا تتخلَّف أبداً، فالمراد بالسنة هنا غَلَبة الحق على الباطل، يعني: الذين مَضَوْا من الأمم السابقة، وما زالتْ سنة الله في نصر الحق قائمة، وستظل إلى قيام الساعة؛ لأنها سنة نعم لا تتبدل ولا تتغير "[2].

فنستخلص مما سبق أن كلمة " سنن " في السياق القرآني، لها دلالات متقاربة من حيث المعنى، ومن ذلك:

- سنن الله؛ أي الطرق التي يصرف الله بها هذا الكون علوية وسفليه وفق إرادته وحكمته المطلقة، وبما يحقق مصلحة الإنسان عاجلا وآجلا، ويضمن تعاقب الأجيال وفق نظام ثابت ومستقر.

- سنة الأنبياء والسابقين؛ شرائعهم وطرائقهم ومناهجهم.

- سنة الله في إهلاك المكذبين ونصر رسله وأوليائه والمؤمنين؛ أي؛ قوانينه وطرائقه ونظمه الثابتة في ذلك، والتي لا تتغير ولا تتبدل أبدا.

ثانيا: مفهوم " السنن الاجتماعية " في الاصطلاح:

حاول العديد من الباحثين في مجال " علم السنن الإلهية " تحديد مفهوم " **السنن الاجتماعية** " باعتباره مكونا مهما من مكونات هذا العلم الجدير بالاهتمام، وبالرجوع إلى تعريفات هؤلاء الباحثين نجد أنها متقاربة من حيث المعنى، وإن اختلفت في تركيبها ومبناها، وهذه بعض منها:

- عرّف الدكتور رشيد كهوس " السنن الاجتماعية " بقوله:" هي النواميس المتحكمة في الإنسان - باعتباره فردا وجماعة وأمة - وفي فكره وسلوكه وحركته في المجتمع وفاعليته في التاريخ، أو هي مجموعة من القواعد والضوابط والمبادئ والأحكام التي رسمها الله تعالى من

---

(1) المصدر نفسه، (213/4).
(2) المصدر نفسه، (121/19).

أجل إصلاح حال الأفراد والجماعات والأمم في شؤونهم الدنيوية والأخروية، والارتقاء بالنفس البشرية إلى المراتب العلوية، وهي سنن لا تتغير ولا تتبدل ولا تتحول "[1].

- ويقول في تعريفها أيضا:" السنن الاجتماعية: هي المنظومة السننية الحاكمة لصيرورة العمران البشري الناظمة لحركة الحياة والأحياء والاستخلاف الإنساني والوجود الكوني وسير المجتمعات عامة، ولسلوك الإنسان وحركته في المجتمع وصيرورته في عالم الشهادة الدنيوي وفاعليته في التاريخ خاصة، التي تهدف إلى إصلاح الإنسان نفسا ومجتمعا وأمة في المعاش وإسعاده في المعاد وتحقيق شهوده العمراني على الأمم "[2].

- ويقول الدكتور عبد الكريم زيدان في تعريف السنن الاجتماعية:" هي الطريقة المتبعة في معاملة الله تعالى للبشر بناء على سلوكهم وأفعالهم وموقفهم من شرع الله وأنبيائه وما يترتب على ذلك من نتائج في الدنيا والآخرة "[3].

وفي موضع آخر يعرفها بأنها:" قانونه العام الذي تجري بموجبه أحداث ووقائع البشر "[4].

- ويعرفها الدكتور أحمد كنعان بقول:" وهي مجموعة القوانين التي سنها الله عز وجل لهذا الوجود، وأخضع لها مخلوقاته جميعا على اختلاف أنواعها وتباين أجناسها "[5].

(1) السنن الإلهية الكونية والاجتماعية لطائف وبصائر، رشيد كهوس، ص: 176. نشر في مجلة تدبر، الصادرة عن الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم بقطر، السنة الأولى، العدد الأول، محرم 1438هـ/أكتوبر 2016م.

(2) فقه السنن الإلهية، الدكتور رشيد كهوس، دورة علمية دولية من تنظيم: مركز ضياء للمؤتمرات والأبحاث، بتاريخ: الثلاثاء 16 مارس 2021، عبر منصة zoom

(3) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان (ت1435هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، السنة:1413هـ-1993م، ص: 13.

(4) المصدر نفسه، ص: 14.

(5) أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في خلقه، أحمد كنعان، كتاب الأمة، عدد 26، الدوحة، قطر: السنة 1411هـ-1991م، د: ط، ص:52.

- ويقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه: موسوعة ألفاظ القرآن الكريم:" سنة الله هي المنهج الإلهي في تسيير أمور حياتنا، وهي طريقته في تربية الأمم، وهي شرائعه التي يرشد الإنسانية بها إلى الله وإلى الحق "[1].

- ويعرفها الشيخ محمد الغزالي بقوله:" هي تلك القوانين المطردة والثابتة التي أودعها الله في الحياة البشرية، والتي تشكل إلى حد كبير ميكانيكية الحركة الاجتماعية وتعين على فهمها "[2].

- ويقول الدكتور عماد الدين خليل:" إنها المبادئ الأساس التي تحكم حركة التاريخ البشري في ماضيه وحاضره ومستقبله "[3].

وخلاصة القول مما سبق ذكره من تعريفات الباحثين وأهل التخصص؛ أن <u>السنن الاجتماعية</u> هي: منهج الله تعالى في عمارة الأرض وحفظ نظام الحياة الإنسانية على مقتضى حكمته البالغة وعدله المطلق ومشيئته النافذة، وهي القواعد والضوابط والقوانين التي سنّها الله عز وجل لتحكم أحوال البشر وسلوكاتهم، وأقام عليها نظام المجتمع من أجل هداية الناس وإصلاحهم على مستوى الأفراد والجماعات، لضمان الاستقرار في الحياة الدنيوية، والسعادة الأخروية، وهذه السنن هي التي تحكم مسيرة المجتمعات البشرية، وتؤطر حركتها وتوجه أحداثها، وهي ثابتة مستمرة، لا تتخلف بتغير الأزمنة والأمكنة.

وهكذا نجد أن السنن الاجتماعية جاءت لتحقيق جملة من المقاصد والغايات، سواء تعلّق الأمر بالأفراد أو بالجماعات.

---

(1) موسوعة ألفاظ القرآن الكريم، محمد عبد المنعم خفاجي، المؤسسة العربية الحديثة - القاهرة، 1988م، ص: 142.

(2) كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي. سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، المنصورة: دار الوفاء، ط: 3، 1413هـ-1992م، ص: 49.

(3) التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، بيروت، دار العلم للملايين، ط:4، 1983م، ص: 97.


Manar al islam
islamanar.com




الفصل الأول:

السنن الاجتماعية، أهميتها، فوائدها، خصائصها، ونماذج منها

وفيه مبحثان:

-المبحث الأول: أهمية السنن الاجتماعية، وفوائدها، وخصائصها.

-المبحث الثاني: نماذج من السنن الاجتماعية في ضوء الآيات القرآنية.




المبحث الأول: أهمية السنن الاجتماعية، وفوائدها، وخصائصها.

المطلب الأول: أهمية العلم السنن الاجتماعية

"إن الحديث عن السنن الاجتماعية يعد منارة للمسلم اليوم في ظلمات هذا العصر بما فيه من تعقيدات ومعضلات، يكون فيها المسلم حيوانا، غير أن المسلم الواعي الذي يتعهد كتاب ربه بالقراءة والعناية والتدبر والفهم هو وحده الوحيد القادر على أن يكون واعيا ومستوعبا لكل ما يجري في هذا الكون من أحداث "[1].

ولقد "أدى إغفال السنن وعدم فقهها في ميدان الدراسات الحضارية في واقع المسلمين الحالي إلى ضياع طاقات كثيرة بذلها مفكرون ومربون إسلاميون عظام، وذهب الكثير منها سدى في ظل مشكلة الإنسان المسلم صاحب المنهج الفقيه بسنن التحضر، الخبير بربط عناصر الكون وطاقاته المعنوية بالحياة الاجتماعية لخدمة الإنسان "[2].

والناظر في آيات القرآن الكريم ليجد الآيات الكريمة الكثيرة التي تغطي الحديث عن السنن الاجتماعية، وفي هذا ما فيه من أهمية لهذا الموضوع، وتلك العناية والرعاية بهذا الموضوع من القرآن الكريم، إشارة واضحة لضرورة أن يعتني بها المسلمون، وإن يولوه من الأهمية ما يستحق كباقي مواضيع القرآن الكريم.

"ومن نافلة القول أن سنن الله تعالى المبينة في القرآن الكريم وفي السنة الشريفة جديرة بالدراسة والفهم، لأن دراستها وفهمهما من الأمور المهمة جدا والواجبة شرعا ودينا، إذ هي جزء من معرفة الدين، ومن جملته معرفة أحوال الأمم مع أنبيائهم، وما حل فيهم بسبب سلوكهم معهم وفقا لسنن الله تعالى، كما أنها تبصرنا بكيفية السلوك الصحيح في الحياة حتى لا نقع في الخطأ والعثار والغرور والأماني الكاذبة، وبذلك ننجو مما حذرنا الله عز وجل منه، ونظفر بما وعد الله تعالى به عباده المتقين"[3].

---

(1) السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل، الدكتور عماد عبد الكريم خصاونة، نشر في مجلة المنارة للبحوث والدراسات، المجلد 15، العدد 2، (2009م)، ص: 215.

(2) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، محمد الصادق عرجون، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط: 3، السنة: 1404هـ - 1984م، ص: 27.

(3) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، ص: 16-17.

لذا فمعرفة الفرد بالسنن الاجتماعية تجعله أقدر على تسخير الكون بما فيه من حوله، والاستفادة من ذلك في تصريف شؤون حياته، وتحديد مسار سلوكه وفق ضوابط تحدد المعالم والأهداف، والسبل الموصلة إليها[1].

بالإضافة إلى أن الوعي بالسنن الاجتماعية يجعل الإنسان يتجنب تكرار أخطاء من سبقه، سواء تعلّق الأمر بالأمم التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، أو حتى الأمم القريبة العهد.

كما أن معرفة السنن الاجتماعية " تفتح أمام الناس أبوابا للنجاة من خلال مدافعة السنن بعضها بالبعض الآخر. وإن من يفقه السنن لا تصدمه الأحداث، بل تكون لديه صلابة في الموقف بخلاف من يجهل مصدر الأحداث فإنه ليس لديه إلا الحيرة والخوف والقلق "[2].

وتعمل السنن الاجتماعية على النهوض الحضاري للأمم؛ فهي سبب في تقدم الأمة ورفعتها وازدهارها في شتى الجوانب؛ العلمية، والفكرية، والاجتماعية...إلخ.

ومن الذين لمحوا إلى أهمية دراسة السنن وضرورة التعرض لها والاستفادة منها، الأستاذ الإمام محمد عبده - رحمه الله تعالى - والذي وصف تفسيره أنه يبين حكم التشريع وسنن الله في الإنسان، وكون القرآن هداية للبشر في كل زمان ومكان. ويوازن بين هدايته وما عاين المسلمون في هذا العصر؛ إذ يقول رحمه الله: " إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة لتستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أجمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون بها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه، كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال.. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن يحمل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم؛ إذا أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها"[3].

---

(1) أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق، أحمد كنعان، ص: 39.

(2) حتى يغيروا ما بأنفسهم، سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، ط: 7، السنة: 1414هـ - 1993م، ص: 163-165.

(3) تفسير القرآن الحكيم المسمى ب (تفسير المنار) السيد رشيد رضا، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، السنة: 1973، د: ط،(4/114-115) - بتصرف -.

وتتبين أهمية العلم بالسنن الاجتماعية من خلال عناية العلماء بهذا العلم وحثهم عليه، وقد عد حجة الإسلام الإمام الغزالي العلم بالسنن الاجتماعية من القسم المحمود من العلوم، وبين أن العلم بالسنن الاجتماعية يأتي في المرتبة الثانية بعد العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، لأن سنن الله تعالى في خلقه صنف من أفعاله سبحانه فقال: " وأما القسم المحمود إلى أقصى غايات الاستقصاء فهو العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وسنته في خلقه وحكمته في ترتيب الآخرة على الدنيا فإن هذا علم مطلوب لذاته وللتوصل به إلى سعادة الآخرة "[1].

من هنا نستخلص أن العلم بالسنن الاجتماعية واجب لفهم الدين، والقدرة على تحقيق الخلافة في الأرض والعيش بسعادة وراحة تمكننا من الفوز في الدنيا والآخرة.

يقول سيد قطب [2]- رحمه الله تعالى - في بيان أهمية السنن وتعهدها " إن هنالك سننا ثابتة لهذا الكون؛ يملك الإنسان أن يعرف منها القدر اللازم له، حسب طاقته وحسب حاجته، للقيام بالخلافة في هذه الأرض، وقد أودعه الله القدرة على معرفة هذا القدر من السنن الكونية، وعلى تسخير قوى الكون وفق هذه السنن للنهوض بالخلافة وتعمير الأرض، وترقية الحياة، والانتفاع بأقواتها وأرزاقها وطاقاتها "[3].

" وتظهر أهمية دراسة السنن الاجتماعية في الكون، والقرآن الكريم عندما يظهر أن هذه السنن بصفاتها السابقة وسماتها الثابتة تتلاقى مع السنن الكونية التي تجري على سائر البشر، فتعلم أن الثانية وجه آخر للأولى؛ بل وطريقة مأمون للدلالة على الله تعالى من أقرب طريق وهو طريق النظر في الأنفس والآفاق، التي قال عنها القرآن الكريم:﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي

(1) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد الغزالي (المتوفى: 505هـ)، الناشر: دار المعرفة - بيروت، د: ط.ت، (39/1).

(2) هو: سيد قطب إبراهيم حسين الشاذلي ولد في أسيوط في 1906م وأعدم 1996م وفق 1386هـ، واعتبر مفسرا مجددا ورائدا للفكر الإسلامي. سيد قطب من الميلاد إلى الاستشهاد، صلاح عبد الفتاح الخالدي، ص: 15-16 بتصرف.

(3) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق القاهرة مصر، ط: 1، السنة: 1972م، (67/3).

ﭐلۡأٓفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّۗ أَوَلَمۡ يَكۡفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت: الآية 52] "[1].

فالعلم بالسنن الاجتماعية من أعظم الوسائل لكمال العلم بالله تعالى وصفاته وأفعاله، وأقرب الطرق إليه وأقوى الآيات الدالة عليه، وأعظم العلوم التي يرتقي بها البشر في الحياة الاجتماعية المدنية، فيكونون بها أعزاء أقوياء سعداء، وإنما يرجى كمال الاستفادة منه إذا نظر فيه إلى الوجه الرباني والوجه الإنساني جميعا [2].

وهذا النظر إلى السنن يجعل الإنسان أقدر على التعامل مع سنن الكون ونواميس الحياة الثابتة بلا تغير، المطردة بلا توقف، الماضية على الأفراد والجماعات والشعوب، وهذه المعرفة لسنن الله تعالى في الآفاق والأنفس لا تقل في أهميتها عن معرفة قوانين المادة والتعامل معها، " فإن لسلامة النظرية أثرا هاما في الوصول إلى الحل بلا توقف الحل على صحتها ومقدار وضوحها.. ومن أكبر الظلم الذي ينزله الإنسان بنفسه أن لا يرى العلاقة التسخيرية الموجودة بين الإنسان والكون والمجتمع و الآفاق والأنفس، فيهمل نفسه ولا يضعها في المكان الذي يسخر الآفاق والأنفس على أساس السنن المودعة فيها "[3].

وكذلك فإن العلم بسنن الله تعالى الكونية العامة يعتبر طريقا إلى العلم بسنن الله الخاصة في المجتمع البشري، ومعرفة تقلبات الحياة به، ومعرفة تطوره، ومعرفة عوامل هذا التطور، ومعرفة مدى سلطان السنن الاجتماعية على هذا المجتمع، لأن العلم بهذه السنن عامة وخاصة هو القيم على توجيه الحياة وتصريفها بما وضع الله في خصائصه من طاقات لتصوير الظواهر الكونية ودوافعها القريبة أو البعيدة، وهذا العلم بالسنن الاجتماعية هو الذي وضع المجتمع الإسلامي في مكان الصدارة من الحياة يوم أن كان العلم بأوسع معانيه هو القائد لهذا المجتمع، فطاف آفاق السموات والأرض نظارا باحثا يستشف الحقائق الكونية من وراء السجف يكشفها له القرآن ويهديه إلى أصولها [4].

---

(1) مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير دراسة في ضوء القرآن الكريم، رمضان خميس زكي الغريب، ط: 1، السنة: 1421هـ- 2015م، ص: 71

(2) تفسير القرآن الحكيم، (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، (417/7) - بتصرف -.

(3) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص: 14-15 - بتصرف -.

(4) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، محمد الصادق عرجون، ص: 8.

وهكذا نجد أن التفقه في سنة الله والسير على نهجها يجعل الأمة تمشي سويا على صراط مستقيم، وعليه فإن هذا الأمر ليس بالسهولة المفرطة ولا بالتعقيد المعجز، وإنه ليسير على من يسره الله عليه وفتح بصيرته وأمده بمدد من عنده [1].

ولذلك فإن الغفلة عن سنة الله تجعل الإنسان يفقد " ميزاته الأساسية، وأمانته التي حملها الله إياها، والسلطان الذي أعطاه الله تعالى له، لتسخير ما خلق الله له، ويصير هذا الإنسان المكرم في أسفل سافلين، بل يصير نفسه مسخرا للذين يعلمون سنن الله "[2].

وكذلك من أهم دواعي الاهتمام بالسنن الاجتماعية المبثوثة في القرآن الكريم هو " الوظيفة التي تضطلع بها في علاقتها بالعلوم الإنسانية عامة وبعلم الاجتماع خاصة؛ فمن شأنها أن تشكل مصدرا هاما لهذه العلوم نعيد على ضوئه النظر في الكثير من نتائجها وخلاصاتها ونمدها من ثم بنتائج وخلاصات يقينية أشبه من حيث الصرامة والدقة بمعادلات رياضية وفيزيائية، فتتضاءل الأخطاء نتيجة لذلك، وتتقلص ويصير من الممكن تجنبها وتفاديها "[3].

---

(1) السنن الإلهية في السيرة النبوية، رشيد كهوس، ، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، السنة:2010م. ص: 139.

(2) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص: 225.

(3) نشأة علم السنن الإلهية ومنهاج تدريسه، رشيد كهوس، نشر في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلد ،31، العدد 2، خريف 1435هـ - 2013م، علمية محكمة جامعة قطر، ص: 151.

المطلب الثاني: فوائد وثمرات علم السنن الاجتماعية

تكتسي دراسة علم السنن الاجتماعية أهمية عظيمة، بالنظر إلى مدى تأثيرها في الأمم والمجتمعات، فهي قوانين يخضع لها الوجود البشري، وتحكم أفعاله وتصرفاته، وتكيف إلى حد كبير الحركة التاريخية للإنسان في عصوره المختلفة، فهي لا تقتصر على أهمية دراسة السنن للكشف عن القوانين التي وضعها الله تعالى لعباده، وإنما لها فوائد وثمرات عملية يمكن الإفادة منها في واقع الأمة الإسلامية.

ومن الثمرات التي نجنيها من فهمنا لطبيعة السنن الاجتماعية:

أولا: ثمرة الإيمان؛" ذلك أننا حين نطلع على طبيعة السنن التي تحكم الكون وما فيه من مخلوقات كثيرة، فإننا سندرك أن هذا الكون ما كان له أن يقوم على هذه الصورة البديعة من التناسق والجمال والتوازن والاستقرار لو لم يكن خالقه ربا واحدا، وإلها حكيما، ومريدا، خبيرا، قويا، عظيما، محيطا بكل شيء، وقادرا على كل شيء، سبحانه وتعالى "[1].

فالذين يؤمنون وحدهم هم الذين يتفكرون ليتلقوا من الكون العريض حولهم موجبات الهدى ودلائل الإيمان ومنافذ الإدراك فيهم منفتحة بما أثار الإيمان فهم من قوة النظر وصحة الفكر وعمق التأمل، فلم تتعطل هذه القوة فيهم بغلبة الهوى وسيطرة العادة، فازدادوا إذعانا وعلقا بربهم بديع هذا الكون.

هذا من جهة، ومن جهة ثانية، فإن التوجيهات الإلهية للمؤمنين للتدبر والتفكر في سنن الوجود، هي توجيهات دقيقة للعقل المؤمن ليتفتح على رصد الوقائع واستقراء الظواهر لمعرفة قوانين المادة والكشف عن أسرار الكون، إذ ما ينبغي أن يعرض عن ملاحظة دقيق صنع الخالق جلا وعلا في الأرض والسماء، بعد أن أمره بذلك ليتعرف على كمال الله تعالى ودقيق صنعه، فيعبده على بينة وعلم، وليتعامل مع عالم الشهادة بإدراك قوانينه

(1) أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في خلقه، أحمد كنعان، كتاب الأمة، عدد 26، الدوحة، قطر: السنة 1411هـ-1991م، د: ط، ص: 105.

وتسخيرها، ومن ها هنا كان العقل المسلم فاعلا متوهجا تواقا للمغامرة العلمية، والريادة في رصد الأفلاك، وتشريح الأعضاء، ودراسة الظواهر، في العصر الإسلامي الذهبي [1].

ففقه السنن الاجتماعية يقود إلى الإيمان بوجود غاية من وراء خلق هذا الكون وتسخيره للإنسان، فإن وجود قوانين تحكم سير الجماعات البشرية بضبط ودقة وانتظام، دليل على وجود غاية من وراء خلق هذا الكون واستخلاف الإنسان فيه، كما أنه دليل على انتفاء العبثية في الكون والخلق بأكمله.

وإن حركة أية جماعة بشرية في التاريخ ليست اعتباطية، بل هي مسؤولة مسؤولية كاملة عن نتائج حركتها، وتبعات تصرفاتها، وهي مدعوة إلى القيام بعمل مدرك مخطط، يقف به الإنسان أمام الله بمسؤولية اتجاه إعمار الكون ورقيه وتقدمه، سيرا على هدي الله الذي جاء به الأنبياء [2].

" ولولا هذه السنن وذلك الانتظام لكانت الحياة عبثا من العبث وصورا من اللعب والانفلات وانعدام الأهداف ولكانت المصادفة والعشوائية هي التي تسود الحياة ولما كان هناك ميزة ولا معنى لعقل العقلاء ورسالات الأنبياء ونصب الشرائع والقوانين التي تنظم مسالك الناس، ولما كان هناك فرق بين فعل الخير وثمراته، ومسلك الشر وعقابه ولا بين الصراط المستقيم والسبل المتفرقة التي تضل الناس وتصل بهم إلى التيه "[3].

وكذلك فإن وجود هذه السنن دليل على وجود خالق لهذا الكون، فالحياة لا تسير عبثا ولا خبط عشواء، بل لها نظام وقوانين تحكم سيرها وصيرورتها، وضعها خالق حكيم مدبر، فهذه السنن ليست سوى تجل لإرادة واضعها الله سبحانه وتعالى، ومن ثم فإن إيمان المؤمن يزداد كلما زاد تعمقه في دراسة السنن ومعرفة أبعادها " لأن ربط السنن بعناية الله

---

(1) الإسلام والوعي الحضاري، أكرم ضياء العمري، جدة: دار المنارة للنشر والتوزيع، السنة: 1407هـ - 1994م، د: ط، ص: 107.

(2) حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، سلسلة كتاب الأمة، (قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ط: 1، السنة: 1402هـ، ص: 53.

(3) حتى يتحقق الشهود الحضاري، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي بيروت، ط: 1، السنة: 1412هـ - 1991م، ص: 74.

سبحانه وتعالى ربطا سببيا يربي العقلية على أن يربط الإنسان في تصرفاته واستفادته من السنن والقوانين التي وضعها الله في الكون "[1].

ثانيا: فهم القرآن: فإن القرآن الكريم قد تضمن إشارات إلى السنن التي أودعها الله في خلقه، وبالتالي فإن معرفة هذه السنن يزيد من فهمنا للقرآن الكريم، لذلك فهناك من جعل تناول القرآن للسنن إعجازا يضاف إلى أنواع الإعجاز الأخرى التي تضمنها هذا الكتاب الكريم، " ووجه الإعجاز في هذا الجانب أن المفهوم القرآني للسنن الاجتماعية يعتبر فتحا عظيما للقرآن الكريم، لأنه أول كتاب عرفه الإنسان أكد على وجود علاقات وروابط بين الأسباب والمسببات والمقدمات والنتائج، التي تعد في الحقيقة تعبيرا عن حكمة الله تعالى وحسن تقديره وبنائه التكويني للساحة التاريخية والاجتماعية "[2].

ثالثا: من الثمرات التي نجنيها من التفاعل مع هذا العلم، أننا حين ندرك إدراكا عميقا أن كل شيء في هذا الوجود خاضع لسنن لا تتبدل ولا تتحول، ثم نترجم هذا الإدراك إلى نتاج عملي من خلال تعاملنا الواقعي مع سنن الله في الخلق، فعندئذ نصبح - بعون الله تعالى - قادرين على تسخير الكون من حولنا وفق الطريقة القويمة التي أمرنا الله عز وجل بها. وبها نتمكن أن نخرج من أزمة تخلفنا، وهي نتيجة طبيعية لغفلتنا عن العلاقة بين الجهد البشري وسنن الله في الخلق [3].

رابعا: ثمرة الحرية؛ فبفهم الإنسان لطبيعة بعض السنن استطاع أن ينفذ من الأرض إلى السماء ويكتسب هامشا جديدا من الحرية، إذ تحرر من قيد الجاذبية الأرضية، وتحرر من قيد السرعة التي منحت له فطرة، وهي سرعة مشيه على قدميه، فأصبح قادرا على الحركة بسرعة مذهلة تتجاوز سرعة الصوت [4].

(1) تأصيل علم السنن الربانية، راشد سعيد شهوان، مجلة القسم العربي، العدد الخامس عشر، 2008م، ص: 39.
(2) الإعجاز السّنني في القرآن الكريم، محمد أمحزون، منشور كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس المغرب، د.ت، ص: 2
(3) أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في خلقه، أحمد كنعان، ص: 35.
(4) المصدر نفسه، ص: 108.

ذلك أن السنن تعد بمثابة حواجز تحد من حرية الإنسان في هذا العالم، وتقيد حركته، نلمس ذلك في قوله عز وجل:﴿ يَٰمَعْشَرَ اَلْجِنِّ وَالِانسِ إِنِ اِسْتَطَعْتُمُۥٓ أَن تَنفُذُواْ مِنَ اَقْطِارِ اِلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ فَانفُذُواْۖ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٖ ﴾ [سورة الرحمن: الآية 31].

فالنفاذ لا يكون إلا لوجود مانع أو حاجز، لكن إرادة الله سبحانه شاءت ألا تكون هذه الحواجز مطلقة، بحيث يستطيع الإنسان الفكاك من أسرها، بل جعل الله عز وجل هذه السنن قابلة للتسخير والتوظيف من قبل الإنسان، لكي يتمكن من القيام بأمانة التكليف، لأنه جل ذكره جعل شروطا لابد أن يوفرها البشر حتى يتمكنوا من تسخير سننه تعالى، ومن تلك الشروط معرفة طبيعة السنن التي تحكم الأشياء التي يريد تسخيرها الإنسان، وأن يهيئ الظروف المناسبة لهذا التسخير [1].

خامسا: إدراك حقيقة الاستخلاف: وكذلك من الفوائد التي يجنيها الإنسان بتعامله مع السنن: معرفة السنن والسير على هداها يحقق معنى الاستخلاف في الأرض؛ فالكشف عن السنن الاجتماعية والإحاطة بها ليست سوى خطوة أولية يتم البناء عليها تمهيدا لقيام الإنسان بمهمة الاستخلاف التي أوكلت إليه منذ بدء خلقه، كما قال سبحانه:﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّے جَاعِلٞ فِے اِ۬لَارْضِ خَلِيفَةٗۖ ﴾ [سورة البقرة: الآية 29].

فحين يتمكن الإنسان من الكشف عن السنن التي أودعها الله في خلقه واستخدامها وحسن التعامل معها، فإنه مطالب بتوظيفها من أجل القيام بالمشروع الاستخلافي الذي أناطه الله به، " ويتجلى الإنجاز الفعلي لمشروع الاستخلاف على المستوى الاجتماعي في صورة حضارة وعمران بشري يكون في مستوى هذا المشروع الذي تحددت معالمه وتأسست مناهجه في ضوء الرؤية القرآنية التوحيدية للحياة والقرآن "[2].

فمعرفة ما حل بالأمم السابقة وأسباب قيام الحضارات وعوامل سقوطها يمكن للأمة المسلمة من بناء حضارة تكون أقدر على الصمود من سابقاتها، لأنها تستفيد من

(1) أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في خلقه، أحمد كنعان، ص: 107-108 - بتصرف -.

(2) ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية، عبد العزيز برغوت، مجلة إسلامية المعرفة، من إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة الثالثة عشرة، العدد 49، سنة: 1428هـ - 2007م ، ص: 23.

تجاربهم وتتجنب الأخطاء التي وقعوا فيها، " فيمكن إذن اعتبار السنن أحد المفاهيم المركزية التي أسس عليها القرآن الكريم نظرته للوجود والكون والحياة والإنسان والاستخلاف والرؤية القرآنية عموما والاستخلاف خصوصا نظرة سننية خاضعة لموازين ومقاييس ومعايير إلهية محكمة ومطردة "[1].

ومن حسن الاستخلاف أن يتدبر المسلم القرآن الكريم الذي أرشد إلى هذه السنن ويسير وفق منهجه، فهو دستور الخالق لخلقه، وقانون السماء لهداية أهل الأرض، والمنهج الذي رضيه الخالق لعباده في استخلافهم له، وبالمقابل من سوء الاستخلاف أن يهمل المسلم تدبر القرآن الكريم والسير على منهجه وينصرف إلى المناهج البشرية بحثا عن العزة والكرامة، ولا يمكن له أن يجدها إلا في منهج الله القويم.

سادسا: ومن الفوائد العظيمة أيضا، " التدبر في سنن الله تعالى، وتجنبنا هذه الدراسة الاعتقاد الخاطئ بأن الكون والحياة تحكمهما المصادفة، وتبين أن ما أودعه الله تعالى في الحياة من سنن، ليس للمعرفة فحسب، بل لبيان أن من يسير وفق سنن الله تعالى، فإنه يلقى في حياته جزاء سيره، هدى في دينه ورخاء في معيشته، أما من خرج عن مقتضى السنن الاجتماعية فإنه يلقى جزاء ذلك ضلالا في دينه، وضنكا وشقاء في حياته الدنيا، ويترتب عليها أيضا الجزاء في الآخرة "[2]، قال سبحانه: ﴿ فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدىٗ فَمَنِ اِتَّبَعَ هُدايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَيٰ وَمَنَ اَعْرَضَ عَن ذِكْرِے فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكاٗ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ اَلْقِيَٰمَةِ أَعْمَيٰ﴾ [سورة طه: الآية 120- 122].

" فالسنن هي القناة التي يصل عن طريقها الإنسان إلى تسخير ما في هذا الكون، والإفادة منه، حيث جعلها الله عز وجل نظاما لحياته، وطريقا إلى سعادته أو شقاءه في دنياه وأخراه"[3].

فنخلص إلى حقيقة مفادها أن حال أيّ أمة من الأمم ماضيا وحاضرا ومستقبلا، لا يستقيم، إلا إذا فهمت حقيقة السنن الاجتماعية، وانسجمت حياتها وتكيفت مع هذه

(1) ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية، عبد العزيز برغوت، ص: 23.

(2) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، شريف الشيخ صالح الخطيب، دار الرشد، ط: 1، السنة: 1425هـ - 2004م، (7/1).

(3) السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول دراسة تأصيلية تطبيقية على الأمم المسلمة والكافرة، محمد أمحزون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: 1، السنة: 1432هـ - 2011م، (65/1).

القانون الإلهي، وأحسنت التعامل معه، حينئذ يستقيم نظام حياتها، ويتحقق مبدأ سعادة في العاجل والآجل.

المطلب الثالث: خصائص السنن الاجتماعية

كان من أعظم النعم الإلهية على الإنسان أن ألهمه للسنن الاجتماعية التي تحكم حركة الحياة والأحياء، وكان من نعمه وفضله أيضا؛ أن كان لهذه السنن الاجتماعية خصائص تتناسب مع كونها من عند الله تعالى، هذه الخصائص جعلت من علم السنن الاجتماعية علما مقعدا وموثوقا ودقيقا؛ يعول عليه في قراءة راشدة للتاريخ؛ لتكوين رؤية واعية للحاضر، وهندسة خرائط مستقبلية ناجعة وفقه.

وقد استطاع العلماء أن يحددوها، ويتعرفوا عليها بدراستهم للسنن الاجتماعية؛ هادفين إلى تحويل ذلك الإدراك إلى نتاج عملي من خلال التعامل الواقعي مع سنن الله في الخلق[1].

وسنن الله تعالى من منظور القرآن الكريم لها خصائص عديدة، فالناظر والمتفحص في آيات الله تعالى وسننه ومنهجه سبحانه في تسيير شؤون الدين، يرى أن هذه الخصائص لازمة لا تنفك عن هذه السنن تحقيقا لعدل الله تعالى وحكمته وعظمته.

ويمكن حصر هذه الخصائص فيما يلي:

1 - ربانية المصدر

ومما تمتاز به سنة الله في المجتمعات صفة الربانية، أي أنها من صنع الله تعالى، فهو الذي خلقها وأودعها في خلقه وأخضع لها عباده، " فهي مرتبطة بالله، فهي تدبير إلهي.. وقرار رباني "[2]، فهذه السنن ليست سوى مظهر من مظاهر عدل الله تعالى وحكمته وتدبيره لشؤون خلقه، لذلك نجد أن الله تعالى حين يتحدث عن السنة في القرآن الكريم فإنه ينسبها إلى ذاته العلية مثل قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴾ [سورة الأحزاب آية 62]، وقوله جل ذكره: ﴿ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ فِي عِبَادِهِۦ ﴾

(1) أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق، أحمد كنعان، ص: 35 بتصرف.

(2) المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، ، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية، ط: 1، السنة: 1421م ،ص: 77.

[سورة غافر آية 84]، فنسبة السنن إلى الله تعالى دليل على ربانية مصدرها، وأنها تجل لأحكام الله وأفعاله في عباده.

ومعنى هذا أن كل سنة من السنن الاجتماعية قرار رباني. ويستهدف ذلك ربط الإنسان بالله تعالى حينما يريد أن يستفيد من القوانين الموضوعية للكون، وإشعاره بأن الاستفادة من مختلف السنن التي تتحكم في هذه الساحات ليس انعزالا عن الله عز وجل؛ فهي ممثلة لإرادته تعالى ولحكمته ولتدبيره في الكون[1]. قوله تعالى: ﴿ كُونُواْ رَبَّٰنِيِّـۧنَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴾ [سورة آل عمران آية 78]

إن كون السنن الاجتماعية ربانية يميزها عن باقي التصورات الفلسفية والمعتقدات الوثنية التي ينشئها الفكر البشري وتصوراته الخيالية، وكون سنن الله ربانية المصدر، يعني أنها مرتبطة بالله تعالى، منه تستمد وبنوره تستضيء، وهذا ما يفرغ عليها قدسية لا نظير لها؛ لأن هذه السنن صادرة من صاحب الخلق والأمر في هذا الكون كما قال سبحانه: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [سورة الأعراف آية 53]، ولم تصدر من البشر الذين يحكمهم القصور والعجز، والتأثر بمؤثرات الزمان والمكان[2].

إن تأكيد القرآن الكريم على خصيصة الربانية في السنن نداء لفطرة الإنسان المجبولة على معرفة خالقها، وتنبيه واستثارة لعقله وقلبه إلى ما في تلك السنن من دلائل القدرة، فهي من خلق الله الذي ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيراً ﴾ [سورة الفرقان آية 2]، وأنها ﴿ صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [سورة النمل آية 90]، وأنها من الآيات البينات التي تثبت وحدانية الله تعالى، فقد أقام سبحانه الحجة على الناس بكتابه المنظور تماما كما أقامها بكتابه المسطور، فإذا كانت هداية الكتاب المسطور قد تمت عن طريق الرسل المبشرين والمنذرين، فإن هداية الكتاب المنظور قد تمت عن طريق سنن الله وآياته في الآفاق والأنفس[3].

(1) السنن التاريخية في القرآن، محمد باقر الصدر، أعاد صياغة عباراته وترتيب أفكاره محمد جعفر شمس الدين، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، السنة: 1409هـ-1989م، د: ط، ص: 68.

(2) علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، مراجعة وتقديم: قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية، دبي - مركز الماجد للثقافة والتراث، ط: 1، السنة: 1436هـ - 2015م، رشيد كهوس، ص: 57.

(3) سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، حسين شرفة، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت - لبنان، ط: 1، السنة: 1429هـ - 2008م، ص: 101.

وحتى نزيد الأمر وضوحا يجب ألا يغيب عن أذهاننا أن هذه السنن إنما هي تعبير وتجسيد لقدرة الله، فهي كلماته وهي سنته وإرادته وحكمته، وإنما يؤكد الله تعالى على ربانيتها لأجل أن يربط الإنسان دائما بالله تعالى، ولكي تبقى الصلة وثيقة بين العلم والإيمان، فالمؤمن في الوقت نفسه الذي ينظر فيه إلى هذه السنن نظرة علمية ينظر إليها نظرة إيمانية.

2 - خاصية عامة وشاملة:

كونها عامة ؛ أي: أن أحكامها تجري على البشر جميعا مهما كان لونهم أو جنسهم أو دينهم، وتأثيرها يطال الجميع دون تفريق أو تمييز، فسنن الله لا تحابي ولا تجامل أحد على حساب أحد، وهي بذلك تحقق " كمال العدل الجزائي الإلهي الذي يتناسب مع جنس العمل، دون النظر إلى جنس أو دين أو مزايا هذا الفرد أو تلك الأمة "[1]. وآيات القرآن الكريم كثيرة وصريحة في هذا المعنى، منها:

قوله تعالى: ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِۗ مَنْ يَّعْمَلْ سُوٓءاً يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراًۖ ﴾ [سورة النساء آية 122] فقد روى الطبري عن ابن عباس في سبب نزول هذه الآية أنه قال: " تحاكم أهل الأديان، فقال أهل التوراة: كتابنا خير الكتب، أنزل قبل كتابكم، ونبينا خير الأنبياء. وقال أهل الإنجيل مثل ذلك، وقال أهل الإسلام: لا دين إلا الإسلام، كتابنا نسخ كل كتاب، ونبينا خاتم النبيين، وأمرتم وأمرنا أن نؤمن بكتابكم، ونعمل بكتابنا. فقضى الله بينهم و أنزل الآية المذكورة[2].

والمعنى: " أن كل من يعمل سوءا يلق جزاءه؛ لأن الجزاء بحسب سنة الله تعالى أثر طبيعي للعمل لا يتخلف عنه، وميزان الثواب والعقاب ليس موكولا إلى الأماني، وإنما يرجع إلى أصل ثابت وسنة محكمة وقانون لا يحابي. قانون تستوي أمامه الأمم، فليس أحد يمت إلى الله سبحانه بنسب ولا صهر، وليس أحد تخرق له القاعدة، وتخالف من أجله السنة، ويعطل لحسابه القانون"[3].

(1) السنن الإلهية حقيقتها وإدراكها في ضوء القرآن الكريم، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد السابع، جمادى الآخرة، سنة: 1430، ص: 98.

(2) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 230/9.

(3) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا، 354/5. وتفسير في ظلال القرآن، سيد قطب، 762/5.

لقد كان اليهود والنصارى يقولون: ﴿ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُاْ أُللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ﴾ [سورة المائدة آية 20] فرد عليهم خالقهم: ﴿ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلَ اَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنْ خَلَقَۖ يَغْفِرُ لِمَنْ يَّشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَّشَآءُۖ﴾ وكانوا يقولون: ﴿ لَن تَمَسَّنَا أُلنَّارُ إِلَّآ أَيَّاماً مَّعْدُودَةٗۖ ﴾ [سورة البقرة آية 79] فجاء الرد من فورهم بأسلوب إنكاري: ﴿ قُلَ اَتَّخَذتُّمْ عِندَ أُللَّهِ عَهْداً فَلَنْ يُّخْلِفَ أُللَّهُ عَهْدَهُۥٓ أَمْ تَقُولُونَ عَلَي أُللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَۖ بَلِيٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةٗ وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ أُلنّ۪ارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَۖ وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ أُلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ أُلْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَۖ﴾ [سورة البقرة آية 79-81]، وكانوا يقولون: ﴿ لَنْ يَّدْخُلَ أُلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً اَوْ نَصَٰرِيٰۖ﴾ [سورة البقرة آية 110]، فكذب الله زعمهم وقال: ﴿ وَقَالُواْ لَنْ يَّدْخُلَ أُلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً اَوْ نَصَٰرِيٰۖ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْۖ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَٰنَكُمُۥٓ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَۖ بَلِيٰ مَنَ اَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٞ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَۖ﴾ [سورة البقرة آية 110-111].

إن اليهود لا يزالون يرددون أنهم شعب الله المختار ويعتقد النصارى أن عيسى عليه السلام بزعمهم هو الذي تحمل خطيئة البشر بما يعتقدون من صلبه ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۖ وَإِنَّ أُلذِينَ اَخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِے شَكّٖ مِّنْهُۖ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ اِلَّا اَتِّبَاعَ أُلظَّنِّۖ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناًۖ (156) بَل رَّفَعَهُ أُللَّهُ إِلَيْهِۖ وَكَانَ أُللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماًۖ ﴾ [سورة النساء آية 156-157].

ولعل بعض المسلمين كانت ومازالت تراود نفوسهم فكرة أن الله متجاوز عما يقع منهم؛ لأنهم مسلمون، ولأنهم خير أمة أخرجت للناس.

فجاء هذا النص يرد هؤلاء وهؤلاء إلى العمل، والعمل وحده. ويرد الناس كلهم إلى ميزان واحد في قوله تعالى عقب الآية المستشهد بها: ﴿ وَمَنَ اَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنَ اَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٞ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاًۖ ﴾ [سورة النساء آية 124] المفسر في قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ أُلْمُشْرِكِينَۖ إِنَّ أَوْلَي أُلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلذِينَ اَتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا أُلنَّبِيٓءُ وَالذِينَ ءَامَنُواْۖ وَاللَّهُ وَلِيُّ أُلْمُومِنِينَۖ﴾ [سورة آل عمران آية 66-67].

من الآيات الدالة على العموم أيضا قوله تعالى: ﴿ اَكُفَّارُكُمْ خَيْرٞ مِّنُ اُوْلَٰٓئِكُمُۥٓ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٞ فِے أُلزُّبُرِۖ ﴾ [سورة القمر آية 43]، حيث تخاطب الآية مشركي مكة، والمعنى: ليس الذين كفروا منكم خيرا من أولئك الأمم التي تقدم ذكرها ممن أهلكوا بسبب تكذيبهم الرسل

وكفرهم بالكتب، فلا تظنوا أن يشملهم العذاب دونكم، أم مع كفار مكة من الله براءة أن لا ينالهم عذاب ولا نكال[1].

ولولا ثبات السنن واطرادها وعمومها لما كان معنى في ذكر قصص الأمم السابقة وطلب الاعتبار بما حل بهم، ولكن لما كان ما جرى لهم وعليهم يجري على غيرهم إذا فعلوا فعلهم حسب ذكر قصصهم وطلب الاعتبار والاتعاظ بها.

ولذلك ختمت هذه الآيات التي تحذر كفار قريش من تكذيبهم الرسول صلى الله عليه وسلم بما يؤيد عموم هذه السنة فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدَ اَهْلَكْنَآ أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ [سورة القمر آية 51] يعني: لقد حق الهلاك على أمثالكم وسلفكم من الأمم السابقة المكذبين بالرسل فلتكن لكم فيهم عبرة وعظة[2].

إن سنة الله في المكذبين بالمعجزات بعد أن شهدوها تقضي بإهلاكهم، كما هو واضح من القصص القرآني في سورة القمر وغيرها، ولكن رحمة الله كانت قد سبقت لأكثر قريش والعرب أن سيؤمنوا، ويكون لهم في نشر الإسلام والجهاد في الله شأن أي شأن، فاقتضت حكمة الله ورحمته بعد أن كذب من كذب بمعجزة انشقاق القمر فاستحق الهلاك أن يحبس الله عمن غاب عنها غيرها من المعجزات الحسية، حتى لا يكذبوا فيهلكوا.

ولذلك يقول الدكتور الغمراوي: " ولابد أن تكون سنة الله قد نفذت في القليل الذين أجريت لهم معجزة انشقاق القمر من كفار قريش، فيكونوا ممن هلك في بدر أو قبلها مع من هلك من المستهزئين.

والحديث الذي ذكره الآلوسي رواية عن أبي نعيم يشهد لهذا، على ضعف فيه عند الآلوسي، فقد ذكر أسماء بعد رؤوس المشركين الذين شهدوا الآية وكذبوا بها، وكلهم أهلكوا مثل النضر بن الحارث "[3].

(1) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، 266/4. - الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي، 94/19.

(2) تفسير القرآن العظيم، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت: 774هـ)، مطبعة دار الحديث، القاهرة، ط: 2، السنة: 1410هـ-1990م، 266/4.

(3) الإسلام في عصر العلم، الرسالة والرسول والقرآن والإعجاز العلمي، للدكتور محمد أحمد الغمراوي، تقديم وتصحيح: د. عبد الحليم محمود، دار الإنسان للتأليف والترجمة، القاهرة، ط: 4، السنة: 1411هـ-1991م، ص: 103.

والحاصل من صفة العموم للسنن الاجتماعية أن أي مجتمع أخطأ أو انحرف متنكبا سنن القانون الإلهي لقي جزاء خطئه أو انحرافه وتنكبه، ولو كان خير المجتمعات، وحسبنا في هذا ما دفعه الصحابة ثمنا لخطئهم في غزوة أحد، وهو ما سجله القرآن عليهم بوضوح في قوله تعالى: ﴿ اَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٞ قَدَ اَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمُۥٓ أَنّيٰ هَٰذَاۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمُۥٓ ﴾ [سورة آل عمران آية 165] وبين في آية أخرى هذا الذي عند أنفسهم بقوله سبحانه: ﴿حَتَّيٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِے اِ۬لَامْرِ وَعَصَيْتُم﴾ [سورة آل عمران آية 152][1].

والمقصود أنه لا محاباة ولا تمييز ولا استثناءات في اتصاف السنن والقوانين الإلهية بالعموم والشمول، وفي ذلك تحقيق لسابغ عدل الله وحكمته ﴿ إِنَّ اَ۬للَّهَ لَا يَظْلِمُ اُ۬لنَّاسَ شَيْـٔاٗ وَلَٰكِنَّ اَ۬لنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَۖ﴾ [سورة يونس آية 44].

والآيات الدالة على عموم سنته تعالى في خلقه كثيرة، مثل قوله تعالى: ﴿ اَمْ حَسِبْتُمُۥٓ أَن تَدْخُلُواْ اُ۬لْجَنَّةَ وَلَمَّا يَاتِكُم مَّثَلُ اُ۬لذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ اُ۬لْبَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّيٰ يَقُولُ اُ۬لرَّسُولُ وَالذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَيٰ نَصْرُ اُ۬للَّهِۖ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ اَ۬للَّهِ قَرِيبٞۖ﴾ [سورة البقرة آية 212]، وقوله عز وجل: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمُۥٓ أَن تَدْخُلُواْ اُ۬لْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اِ۬للَّهُ اُ۬لذِينَ جَٰهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ اَ۬لصَّٰبِرِينَۖ﴾ [سورة آل عمران آية 142]، وقوله سبحانه: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِے اِ۬لَارْضِ فَيَنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ اُ۬لذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اَ۬للَّهُ عَلَيْهِمْۖ وَلِلْكٰ۪فِرِينَ أَمْثَٰلُهَاۖ ﴾ [سورة محمد آية 11]، وقوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ اَ۬للَّهِ فِے اِ۬لذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اِ۬للَّهِ تَبْدِيلاٗۖ﴾ [سورة الأحزاب آية 62]، وغير ذلك من آيات طلب السير في الأرض للاعتبار بمآل الأمم السابقة، وكذلك الآيات التي وردت فيها لفظ " سنة " ومشتقاتها عقب تقرير حكم أو بيان قضاء لله في الخلق.

وشاملة ؛ فتشمل وتنضبط لها جميع الظواهر الاجتماعية والتاريخية؛ أي: " أن السنن الاجتماعية جامعة لا تقبل التجزئة، وشاملة لكل شؤون الحياة ولكل ميادين النشاط البشري، ولكل القضايا في هذا الكون"[2] ، حيث نجد " في كل علم من العلوم وفن من الفنون وفي كل مجال من المجالات... سنن الله - عز وجل -"[3] ، بل تشمل وتسري على كل الأزمات

---

(1) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، يوسف القرضاوي، ص: 102.

(2) السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، رشيد كهوس، ص: 68.

(3) هي هكذا، كيف نفهم الأشياء من حولنا، عبد الكريم بكار، ص: 15

والعصور وكل الأحيال، وبهذا فإن السنن الإلهية بشموليتها وعموميتها لتشكل بذلك أسمى وأبهى مظاهر العدل الإلهي.

3 - خاصية الثبات والاطراد:

إن كتاب الله المنظور منذ بدء الخليقة إلى يوم الناس هذا؛ يشهد بأنه يسير على وتيرة واحدة لا تتخلف ولا تتبدل، وكتاب الله المسطور يؤيد أيضا على هذه الحقيقة وعبر آيات كثيرة، ولقد تفطن مفكرو الإسلام إلى أن هذا لم يكن " ليتحقق لو لم تكن السنن ثابتة مستمرة "[1] ومطردة؛ كشأن " القاعدة القانونية. فهي ثابتة لا تتغير "[2] ، لذلك كانت خصيصة **الثبات والاطراد** من الخصائص التي أكسبت علم السنن الاجتماعية الصبغة العلمية.

والمقصود " باطراد السنن الاجتماعية: تتابع تكرار آثارها على الوتيرة نفسها كلما توافرت شروطها، وانتفت الموانع التي تحول دون تحقيقها "[3] ، بحيث إن نتائج أية حركة " تصدق متى ما وجدت المقدمات، والعواقب تظهر متى ما وجدت الأسباب... ولذلك فهي تحقق العدل والانضباط في النظام الكوني والتاريخ والبشرية "[4].

وأصل هذه الخصيصة التي تؤكد هذا المعنى موجود في الكثير من الآيات القرآنية؛ كقوله تعالى: ﴿ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً ﴾ [سورة فاطر آية 43] وقد " استهدف القرآن الكريم من خلال التأكيد على طابع الاطراد في السنة الاجتماعية، استهدف أن يؤكد على الطابع العلمي لهذه السنة وأن يخلق في الإنسان المسلم شعورا واعيا على جريان أحداث التاريخ متبصرا لا عشوائيا ولا مستسلما ولا ساذجا "[5] ؛ إذ لا مجال لا للصدفة ولا للاتفاق

(1) السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في العصر الحديث، عمر حيدوسي، ص: 189.
(2) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، ص: 14.
(3) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، ص: 76.
(4) السنن الإلهية حقيقتها وإدراكها في ضوء القرآن الكريم، ذو الكفل بن الحاج محمد يوسف بن الحاج إسماعيل، ص: 76.
(5) السنن التاريخية في القرآن، محمد باقر الصدر، ص: 67.

ولا للعشوائية[1] ولا للعادة[2] كما ادعى ويدعي ذلك الكثيرون، كما أنه لا مجال للحتمية[3] ، فلولا " اطرادها لما أمكن الاتعاظ والاعتبار بها "[4].

إن سنن الله مطردة لا تتوقف ولا تتعطل، وجريانها " وتحققها يكون بقضاء الله عز وجل وقدره وحكمته، يستوي في ذلك سنن الله الجارية والخارقة. وإذا أراد الله تبارك وتعالى شيئا فإنه لا ينفذه بإبطال سننه المطردة وأقداره الماضية في خلقه، ولكن بالترجيح أو التوفيق بينهما "[5].

وكما أن هذه السنن **مطردة** فهي سنن **ثابتة** أيضا " تسير الحياة على مقتضاها مهما اختلفت القرون والأجيال "[6] بحيث " لا يطر أعليها أي تغيير أو تبديل "[7] تحت تأثير الزمان والمكان والأهواء والمصالح، ولا تتوقف عند لحظة أو زمن معين[8] ، وهي ثابتة " لا تتخلف لأنها منبثقة من صميم العلاقات التي بين الله والعالم والإنسان؛ لذا فهي تكاد تكون محتومة، لارتباطها بمقدماتها ارتباطا وثيقا "[9] ، وهذا لا يعني " الجمود في قالب حديدي وإنما يعني

---

(1) (ولهذا قص علينا القرآن الكريم قصص الغابرين وما حل بهم من جراء ما اقترفوه من مخالفات للأوامر الإلهية، لنأخذ الدروس والعبر ونرجع إلى الصراط السوي، حتى لا يصيبنا ما أصابهم، ولولا اطراد سنة الله لما كانت دعوة للسير في الأرض والوقوف على آثار السابقين وأخذ العبرة والدروس مما أصابهم). السنن الإلهية في السيرة النبوية، رشيد كهوس، ص: 83 بتصرف.

(2) (يرى أصحاب هذا الرأي؛ أن القول باطراد السنن الاجتماعية ينفي المشيئة الإلهية...). أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق ، أحمد كنعان، ص: 69-70 بتصرف.

(3) (القول بالحتمية جعل الكثيرين يقعون في التفسير المادي أو الماركسي للتاريخ، أو تفسير القضاء والقدر تفسيرا خاطئا؛ وكان من أحد أسباب تخلف المسلمين، إلا أن هناك اتجاه إسلامي حديث للتاريخ يرى بوجود الحتمية في حركة المجتمع والتاريخ تقوم في هذه السنن، ولكن هذه الحتمية لا تشل حركة الإنسان الفرد ولا تكبل حركة الأمة إن قررت وأرادت السير في طريق التحضر أو غيره، ومما يبطل الحتمية). السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم، مجدي عاشور، ص: 101-102 بتصرف.

(4) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، ص: 14.

(5) السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، رشيد كهوس، ص: 61.

(6) التيسير في أحاديث التفسير، المكي الناصري، (267/1).

(7) كيف نفهم الأشياء من حولنا، عبد الكريم بكار، ص: 10.

(8) النصر والهزيمة، عبد اللطيف حسن مرشود، ص: 160 بتصرف.

(9) الحضارة الإسلامية وجه جديد، أبو اليزيد زيد العجمي، ص: 49.

الحركة - التي تعتبر قاعدة في التصميم الكوني والحياة البشرية - في مضمار هذه الخصيصة حتى لا تسود الفوضى والحيرة في الكون "[1].

والقرآن الكريم وهو يثبت هذا المعنى من خلال الكثير من الآيات الكريمات؛ يرد على من " يخرج النكبات التي تصيب الصالحين عند عدم تعاملهم مع الأسباب يخرجها على أنها ابتلاء ورفع درجات أو تكفير سيئات وما أشبه هذا الكلام، ولكن الصواب أنه راجع إلى عدم تخلف السنن واطرادها في كل حال "[2] كما يبطل ادعاءات القائلين بالصدفة؛ والراجع في أغلب الأحيان لقصور العقل البشري على إدراك العلل والأسباب المؤدية إلى تلك النتائج؛ إذ لولا ثباتها لا تسع المجال للعبثية والفوضى[3].

والتاريخ يثبت ذلك " فما عرف وما جرى لها خرق قط في ماض أو حاضر، فهي ماضية مستمرة لا تتبدل ولا تتغير على مر الأزمان والدهور، وذلك لقيامها وبنائها على الحكمة الإلهية "[4]. أما فيما يخص " السنن الكونية فقد تنخرق أحيانا نصرة لبعض المؤمنين أو نجاتهم، أو هلاك العصاة الخارجين عن طاعته... ينقضها الله إذا شاء[5]. وبالنسبة للسنن التشريعية وأحكامها، " فنجدها تنقسم إلى قسمين: قسم يمثل **الثبات** والخلود، وقسم يمثل **المرونة والتطور**، ويتجلى هذا الثبات في المصادر الأصلية النصية القطعية للتشريع...وتتجلى المرونة في المصادر الاجتهادية، التي اختلف فقهاء الأمة في مدى الاحتجاج بها "[6].

إن ثبات واطراد السنن الاجتماعية من مظاهر الرحمة الإلهية بالإنسان - فردا وجماعة وأمة - والتي تفوق الحصر، فثباتها مكنه من الاتعاظ والاعتبار، واطرادها أشعره بأنه يتعامل مع أشياء ذات مواصفات ثابتة، بمعنى أنه عرف أن مباشرة الفعل الفلاني تؤذي إلى نتيجة محددة[7]. وبهذا " تثبت النفس وتطمئن ويحيطها الاستقرار، الذي يكون توطئة

(1) السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، رشيد كهوس، ص: 58.
(2) مفهوم السنن الربانية، رمضان خميس، ص: 51.
(3) السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، رشيد كهوس، ص: 58 بتصرف.
(4) تأصيل السنن الربانية، راشد شهوان، ص: 51.
(5) السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، رشيد كهوس: ص: 59.
(6) تأصيل السنن الربانية، راشد شهوان، ص: 51.
(7) كيف نفهم الأشياء من حولنا، عبد الكريم بكار، بدون صفحة (التمهيد) بتصرف.

لمعرفة ما لكل امرئ وما عليه، فيعتبر المبصر ويحذر المخطئ، ويتحسس كل إنسان أين تسير به قدماه فيحجم أو يقدم - مستندا إلى ظنه - لمصيره ومآله في دنياه وأخراه "[1].

4 - خاصية الأجل:

قال الله تعالى: ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴾ [سورة الرعد آية 39]، ، فالله تبارك وتعالى قيد كل شيء في هذا الوجود بقدر معلوم إلى أجل معلوم، فيكون معنى الآية: أن لكل أمر قضاه الله كتابا وأجلا قد كتبه الله عنده، لا يتقدم ولا يتأخر.

والأجل " يختلف باختلاف الأشياء، والسبب الذي أجلت له، لكن لا ينفك عن الزمن والأجل. ومن هنا كان عامل الزمن ضابطا من ضوابط السنن الاجتماعية "[2].

وعليه، فنلمح مما سبق أن أجل كل شيء يختلف عن الآخر؛ فمنه ما يعد بالشهور نحو قوله عز وجل: ﴿ وَنُقِرُّ فِي اِ۬لْاَرْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَيٰٓ أَجَلٍ مُّسَمّيٗ ﴾ [سورة الحج آية 5]، ومنه ما يقاس بالعمر كما جاء في قوله تعالى وتقدس: ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ اَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اِ۬للَّهِ كِتَٰباٗ مُّؤَجَّلاٗ ﴾ [سورة آل عمران آية 145]، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَنْ يُّؤَخِّرَ اَ۬للَّهُ نَفْساً اِذَا جَآءَ اجَلُهَاۖ وَاللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة المنافقون آية 11]، وقوله جل ذكره: ﴿ مَّا تَسْبِقُ مِنُ اُمَّةٍ اَجَلَهَا وَمَا يَسْتَٰخِرُونَ ﴾ [سورة الحجر آية 5]، ومنها ما يدوم بدوام الدنيا كقوله تبارك وتعالى: ﴿ اَلَمْ تَرَ أَنَّ اَ۬للَّهَ يُولِجُ اُ۬ليْلَ فِے اِ۬لنَّهارِ وَيُولِجُ اُ۬لنَّهَارَ فِے اِ۬ليْلِ وَسَخَّرَ اَ۬لشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلّٞ يَجْرِےٓ إِلَيٰٓ أَجَلٍ مُّسَمّيٗ وَأَنَّ اَ۬للَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٞ ﴾ [سورة لقمان آية 28].

ولولا اتسام سنن الله بهذه الخصيصة للحق بالكافرين العذاب في أول وهلة، قال الحق غز وجل: ﴿ وَلَوْلَآ أَجَلٞ مُّسَمّيٗ لَّجَآءَهُمُ اُ۬لْعَذَابُ وَلَيَاتِيَنَّهُم بَغْتَةٗ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ [سورة العنكبوت آية 53]، وقوله سبحانه: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اُ۬للَّهُ اُ۬لنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَيٰ ظَهْرِهَا

(1) السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول وضوابط، مجدي عاشور، ص: 100.

(2) التجديد في دراسة الحديث النبوي على نور السنن الإلهية، سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم المعرفية (3)، محمد جابري، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة، ط: 1/ جمادى الأولى 1424هـ.. ص: 122. علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، رشيد كهوس، ص: 78. بتصرف.

مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّىۖ فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِۦ بَصِيرًۢا ﴾ [سورة فاطر آية 46].

هكذا ترتبط سنن الله بالأجل؛ فلكل شيء أجل، فإذ جاء أجلهم فلا يتقدم ولا يتأخر: ﴿ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [سورة نوح آية 4].

5 - خاصية التنوع

إن التنوع في الخلق يستتبع وجود تنوع مماثل في السنن التي تحكمه؛ فالله سبحانه خلق هذا الكون البديع الجميل، وبث فيه من المخلوقات أنواعا كثيرة لا تعد ولا تحصى. ولهذا يمكن إدراك مقدار التنوع في السنن التي تحكم المخلوقات، وإدراك السبب في عدم انكشاف كثير من هذه السنن.

فالإنسان يشاهد كثيرا من مخلوقات الله عز وجل ويرى كثيرا من الظواهر، فلا يدرك الحكمة من خلقها، ولا يعرف السنن التي تحكمها. ويرجع سبب ذلك إلى خفاء بعض السنن وتقصير الإنسان في البحث عنها لكثرتها وتنوعها؛ فهناك عشرات الألوف من الحشرات والنباتات والحيوانات التي لا نعرف الحكمة من خلقها، ونجهل السنن التي تحكمها. ويرجع ذلك إلى قصور العلم الإنساني: ﴿ وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [سورة الإسراء آية 85].

ويرجع أحيانا أخرى إلى القصور في الرسائل المتاحة بين أيدي البشر. ومن ذلك على سبيل المثال: الإشعاع الذري، فهذا الإشعاع الذري أوجده الله سبحانه وتعالى منذ ملايين السنين، ولم يتمكن الإنسان من اكتشافه إلا بعد تطوير الأجهزة الحساسة لهذا الإشعاع الذي يصدر عن العناصر الكيماوية المشعة. وبعد دراسة هذه الظاهرة علم الإنسان بوجود سنة تحكم عملية الإشعاع الذري. وعندما تعمق بدراسة هذه السنة - بفضل الله تعالى - أن يسخر الإشعاع الذري في أغراض شتى مدنية وعسكرية: كعلاج الأورام السرطانية، وتوليد الطاقة الكهربائية، وصنع القنابل النووية[1].

ومن أجل ذلك، فالإنسان مطالب دوما ببذل الجهد الدؤوب المستمر لاستخراج ذخائر هذا الكون الذي تحكمه سنن لا تعد ولا تحصى. فالله جلا علاه خلق هذا الكون

(1) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، ص: 83.

واستخلف الإنسان فيه، ومنحه القدرة على تسخيره واستغلال كنوزه وثرواته. ولكنه سبحانه جعل شروطا للوصول إلى تسخير الكون من قبل البشر، وهو أن يعرفوا ابتداء طبيعة السنن التي يخضع لها. وهذا يتطلب استجابة وصبرا ودأبا وإبداعا، ثم يعملون على توفير الوسائل والأدوات المناسبة التي تعينهم على تسخير هذه السنن - مناط الاستخلاف - وتفتح لهم الطريق لفهم هذا العالم، وفك رموزه، والتعامل معه[1].

6 - خاصية النفاذ والصرامة

خاصية النفاذ والصرامة من تجليات العدل الإلهي في هذا الكون؛ وذلك لأن السنن الاجتماعية لا تحابي أحد، ولا تفرق بين شخص وآخر، ولا بين أمة وأخرى لأي سبب من الأسباب، فالأعمال الخيرة حلوة الثمرة عظيمة النتائج، والأعمال الشريرة ستكون وبالا على أصحابها إن عاجلا وإن آجلا[2] ، وبحياديتها هاته؛ تستجيب لكل من يتعقلها، ومن خالفها وتنكبها فهي له بالمرصاد[3] ، ولذلك فإن أي تأخر أو اهتزاز في نفاذ هذه السنن، سوف يؤول إلى تميع الحركة التاريخية، وعدم انضباطها جزائيا، وبالتالي يؤول إلى موقف نقيض لمفاهيم الحق والعدل[4].

إن طبيعة السنن الصارمة والنافذة تصوغ الإنسان؛ صياغة تتعامل مع واقع الأمر كما هو، فسنن الله صارمة ونافذة على الجميع، ولا يمكن لأي جماعة أن تفكر أو تطمع بأن تكون مستثناة من سننه[5].

وخلاصة القول : إن السنن الإلهية عموما والاجتماعية منها بوجه الخصوص، امتازت بخصائص عديدة، أبرزها أنّ هذه السنن الاجتماعية هي من عند الله تعالى الحكيم الخبير؛ وهذه الخاصيّة هي " خاصيّة الربّانية "؛ مما يؤكد أن هذه السنن لا تخرج عن منهج الله وحكمته في تدبير شؤون خلقه، وعن هذه الخصّيصة (الربّانية) انبثقت باقي الخصائص الأخرى، التي تميزت بكونها متناغمة ومترابطة فيما بينها، في إطار منظومة متكاملة.

(1) السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول، محمد أمحزون، (1/154-155).
(2) كيف نفهم الأشياء من حولنا، عبد الكريم بكار. تمهيد.
(3) تأصيل علم السنن الربانية، راشد شهوان، ص: 55.
(4) حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، ص: 53.
(5) السنن التاريخية في القرآن، محمد باقر الصدر، ص: 68.

المبحث الثاني: نماذج من السنن الاجتماعية في ضوء الآيات القرآنية.

المطلب الأول: سنّة التغيير من المنظور القرآني:

لقد نشأ النبي صلى الله عليه وسلم في أمة أمية غلب عليها طابع القبلية والعصبية، لا تعرف شيئا عن أساليب تغيير الواقع الاجتماعي، منغمسة في أتون الفتن والفرق والانقسام، بل وحتى الأمم المتمدنة المجاورة للعرب كفارس والروم لم يكونوا يعرفون شيئا عن آليات وطرق تغيير المجتمعات، معتقدين أن التغيير في العادة يأتي من القيادات إلى الشعوب، وأنه لا سلطان للمجتمعات في تغيير واقعها من سيء إلى حسن.

فجاء الكتاب العزيز بأفكار جديدة على الفكر البشري في هذا الشأن، إذ بين الله عز وجل أن تغيير الواقع يأتي من داخل المجتمعات والأقوام بتغيير ما بأنفسهم؛ فالله تعالى لا يغير واقع مجتمع أو أمة حتى يبدأوا هم فيغيروا ما بداخل أنفسهم من مفاهيم وأفكار، ويغيروا نظرتهم إلى الكون والإنسان والحياة، ويصلحوا أحوالهم، ويلملموا جمعهم، ويتعاطوا الحقوق فيما بينهم، فيغير الله تعالى آنذاك ما بهم، فيبدلهم بعد ذل وضعف قوة، وبعد شدة رخاء، وبعد فقر غنى وسعة [1].

1 - تعريف سنة التغيير لغة واصطلاحا:

أ: التغيير لغة:

قال ابن منظور: " تغيَّر الشيءُ عَنْ حَالِهِ: تَحَوَّلَ. وغَيَّرَه: حَوَّله وَبَدَّلَهُ كأَنه جَعَلَهُ غَيْرَ مَا كَانَ "[2].

" والتَّغْيِيرُ يقال على وجهين:

أحدهما: لتغيير صورة الشيء دون ذاته. يقال: غَيَّرْتُ داري: إذا بنيتها بناء غير الذي كان.

(1) الإعجاز السنني في القرآن الكريم، محمد أمحزون، ص: 138-139.
(2) لسان العرب، لابن منظور، مادة: (غير)، (40/5).

والثاني: لتبديله بغيره. نحو: غَيَّرْتُ غلامي ودابّتي: إذا أبدلتهما بغيرهما "[1].

يقال في تاج العروس:" تَغيَّرَ الشيْءُ عَن حَاله: تَحَوَّلَ. وغَيَّرَهُ: جَعَلَه غَيْرَ مَا كَانَ. وغَيَّرَهُ حَوَّلَهُ وبَدَّلَهُ، وَفِي التَّنْزِيل الْعَزِيز: ذلكَ بِأَنَّ اللهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْم حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ قَالَ ثَعْلَب: مَعْنَاهُ حَتَّى يُبدِّلُوا مَا أَمَرَهُم الله. والاسْمُ من التَّغْيير الغَيْرُ، عَن اللَّحْيَانيّ، وأَنشد: إِذْ أَنَا مَغْلُوبٌ قَلِيلُ الغَيْرِ. قَالَ: وَلَا يُقَالُ: إلاّ غَيَّرْت. وذَهَب اللّحْيَانيّ إِلى أَنّ الغَيْرَ لَيْسَ بمَصْدَر، إِذ لَيْسَ لَهُ فِعْلٌ ثُلاثِيٌّ غَيْرُ مَزِيدٍ "[2].

ب - سنة التغيير في الاصطلاح:

أما في الاصطلاح فالتغيير كما عرفه المفكر الإسلامي جودت سعيد:" انتقال من حالة لا يرضى عنها إلى أخرى خير منها، وهذا الانتقال يخضع لقانون يتخذ علاقة بين الهدف والوسيلة وطاقة الإنسان "[3].

كما يعرف بأنه:" الانتقال من حال إلى حال والتحول من وضع إلى وضع، أو من صفة إلى صفة سواء كانت هذه الأحوال إيجابية أم سلبية "[4].

كما عرف بأنه: " انتقال الشيء من حالة إلى حالة أخرى "[5].

فالتغيير إذن: " هو انتقال وتحول من وضع إلى وضع آخر، ومن حال إلى حال آخر، ولأنه سنة عامة، فتركيزنا هنا على الجانب الإيجابي منه، وهو التغيير نحو الأحسن؛ حيث قضى الله تعالى أنه لا يغير واقع مجتمع حتى يبدأ أفراده بتغيير ما بداخل أنفسهم من عقائد ومفاهيم وأفكار وأخلاق، ويصلحوا أحوالهم وأوضاعهم، فيغير الله تعالى حينئذ ما بهم، ويأخذ بأيديهم.

(1) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت425هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الناشر: دار القلم، دمشق، ط3، السنة:1423هـ-2002م، (619/1).

(2) تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: 1205هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية، د: ط.ت، مادة " غير " (286/13).

(3) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص: 27.

(4) منهج الحركة الإسلامية في التغيير، محمد عبد القادر أبو فارس، ص: 20.

(5) التعريفات، الجرجاني، (63/1)..

فإن الأقوام والمجتمعات، لا تتغير إلا بمغير، وهو مغير من بداخلها، لا من خارجها، وهو أن تغير ما بأنفسها لغير الله ما بها، أي تغييره من الشر إلى الخير، ومن الانحراف إلى الاستقامة، ومن الضلالة إلى الهدى، ومن الغواية إلى الرشد، ومن الكسل إلى العمل، فيغير الله حالها من الضعف إلى القوة، ومن الذل إلى العزة، ومن التشرذم إلى الوحدة، ومن الانفراط إلى التماسك، ومن القنوط إلى الأمل، ومن الهزيمة إلى النصر، ومن الخوف إلى الأمن، ومن الاستضعاف إلى التمكين "[1].

إن أساس كل تغيير وفق سنة الله الاجتماعية التي لا تتبدل ولا تتحول هو " التغيير النفسي " أو بتعبير القرآن الكريم " تغيير ما بالأنفس "؛ فجعل القرآن الكريم علاقة عضوية وثيقة العرى بين تغيير ما بداخل النفس وتغيير الوقع الاجتماعي.

خلافا لقوانين المادية التاريخية التي تجعل الإنسان كائنا سلبيا لا إرادة له إزاء قوة المادة أو قوة الاقتصاد ووسائل الإنتاج، يقول كارل ماركس " في الإنتاج الاجتماعي الذي يزاوله الناس، تراهم يقومون علاقات محدودة لا غنى عنها، وهي مستقلة عن إرادتهم "[2].

كما نجد أنَّ القرآن الكريم بيَّنَ أثر الإنسان في التغيير، وأنه مركز الثقل في حركة التاريخ، وجعله مدار الحركة التاريخية، وأوكل إليه مهمة التغيير والبناء، وكلفه بتحقيق الخلافة الإلهية على الأرض، وإنشاء العمران عليها.

2 - سنة التغيير في القرآن الكريم

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن ذكر التغيير لم يرد إلا في سورتين على النحو الآتي:

1 - قال صاحب المحرر الوجيز في تفسير قوله تعالى:﴿ كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَالذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ اِللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اُللَّهُ بِذُنُوبِهِمْۖ إِنَّ اَللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ اُلْعِقَابِۖ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اَللَّهَ لَمْ يَكُ

(1) الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد، يوسف القرضاوي، ص: 115. والمبشرات بانتصار الإسلام، يوسف القرضاوي، ص: 87.
(2) شبهات حول الإسلام، محمد قطب، دار الشروق، ط: 21، السنة: 1413هـ-1992م، ص: 212.

مُغَيِّراً نِّعْمَةً اَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اَللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال: الآية 53-54].

قال ابن عطية[1]: الإخبار بأن الله عز وجل إذا أنعم على قوم نعمة فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغيرها وتكديرها حتى يجيء ذلك منهم بأن يغيروا حالهم التي تراد وتحسن منهم، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم غير الله نعمته عليهم بنقمته منهم، ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد صلى الله عليه وسلم فكفروا ما كان يجب أن يكونوا عليه، فغير الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار وأحل بهم عقوبته [2]، ذلك أنهم غيروا ما بأنفسهم إلى الشر والفساد في الأرض.

فتدل هذه الآية على أن الله لا يغير النعم بإنزال العذاب إلا أن يكون التغيير من القوم أنفسهم، بعد ذلك يحل بهم عذاب الله تعالى.

والتغيير لا يختص بنعمة دون غيرها بل هو شامل للنعم كلها صغرت أم كبرت. قال الألوسي في تفسير قوله تعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اَللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً اَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي لم ينبغ له سبحانه ولم يصح في حكمته أن يكون بحيث يغير نعمة أي نعمة كانت جلت أو هانت أنعم بها عَلَى قَوْمٍ من الأقوام ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ ﴾ أي ذواتهم من الأعمال والأحوال التي كانوا عليها وقت ملابستهم للنعمة ويتصفوا بما ينافيها سواء كانت أحوالهم السابقة مرضية صالحة أو أهون من الحالة الحادثة [3].

(1) هو: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن غالب بن تمام بن عطية، القاطي الحافظ، أحد أعلام الأندلس، مفسر وفقيه، ولد سنة (481هـ) ولي قضاء المرية، وكان يكثر الغزوات في جيوش الملثمين، له شعر، توفي سنة (541هـ) أو (546هـ) له مصنفات مفيدة: المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، طبقات المفسرين للسيوطي (ص: 16).

(2) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة، 1 السنة: 1422 هـ، (541/2).

(3) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (ت: 1270هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط: 1، السنة: 1415 هـ، (216/5).

2 - وقوله سبحانه:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ ﴾ [سورة الرعد: الآية 12]؛ أي: أن الله عز وجل لا يغير نعمة أو بؤسا، ولا يغير عزا أو ذلة، ولا يغير مكانة أو مهانة.. إلا أن يغير الناس من مشاعرهم وأعمالهم وواقع حياتهم فيغير الله ما بهم وفق ما صارت إليه نفوسهم وأعمالهم، وإن كان الله يعلم ما سيكون منهم قبل أن يكون، ولكن ما يقع عليهم يترتب على ما يكون منهم، ويجيء لاحقا له في الزمان بالقياس إليهم[1].

وقال السعدي في تفسير هذه الآية:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ " من النعمة والإحسان ورغد العيش ﴿ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ ﴾ بأن ينتقلوا من الإيمان إلى الكفر ومن الطاعة إلى المعصية، أو من شكر نعم الله إلى البطر بها فيسلبهم الله عند ذلك إياها، وكذلك إذا غير العباد ما بأنفسهم من المعصية، فانتقلوا إلى طاعة الله، غير الله عليهم ما كانوا فيه من الشقاء إلى الخير والسرور والغبطة والرحمة "[2].

وقال الإمام ابن القيم - رحمه الله -:" أخبر الله تعالى أنه لا يغير نعمه التي أنعم بها على أحد حتى يكون هو الذي يغير ما بنفسه، فيغير طاعة الله بمعصيته، وشكره بكفره، وأسباب رضاه بأسباب سخطه، فإذا غيَّر غير عليه، جزاء وفاقا، وما ربك بظلام للعبيد، فإن غير المعصية بالطاعة، غير الله عليه العقوبة بالعافية، والذل بالعز "[3].

والتغيير يكون من بعض الأفراد كما يكون من الأمة والشعب بأسره، وسواء كان التغيير بالسلب أو الإيجاب،" كما وقع يوم أحد بتغيير الرماة ما بأنفسهم؛ فعمت البلية الجميع "[4].

---

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق القاهرة مصر، ط: 1، السنة: 1972م (2049/4).

(2) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: 1، السنة: 1420هـ -2000 م، (414/1).

(3) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، الناشر: دار المعرفة - المغرب، الطبعة: 1، السنة: 1418هـ - 1997م، (74/1).

(4) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي. (ت: 1393هـ)، تحقيق: مكتبة البحوث والدراسات، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت، السنة: 1415هـ-1995م، (32/14).

فالله عز وجل في هذه الآية الكريمة " يَدلُّنا أنه سبحانه لا يتدخَّل إلا إذا عَنَّت الأمور؛ وفسد كل المجتمع؛ واختفتْ النفس اللوَّامة من هذا المجتمع؛ واختفى مَنْ يَقْدِرون على الرَّدْع ولو بالكلمة من هذا المجتمع؛ هنا يتدخل الحق سبحانه "[(1)].

وها هنا عدة أمور ينبغي التنبيه إليها:

الأمر الأول:" إن السنة الموجودة في قوله تعالى:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْۗ ﴾ سنة عامة تنطبق على كل البشر، بدليل أن كلمة " قوم " في الآية لم تأت مخصصة بقوم معينين، وإنما هي لكل قوم، ومجيئها نكرة في الآية يدل على هذا "[(2)].

الأمر الثاني:" إن الآية الكريمة تبين أن هذه السنة اجتماعية لا فردية. إذن فالحديث عن قوم، عن مجتمع له خصائصه بما يشمل من الرجال والنساء، والصغار والكبار. فمضمون الآية الكريمة ليس محاسبة الأفراد، وإنما محاسبة المجتمع، وتغيير ما بالمجتمع على أساس العمل الجماعي "[(3)].

الأمر الثالث:" إن الغاية المستفادة من " حتى " هي غاية متسعة؛ لأن المجتمعات إذا غيرت ما بين أنفسها من هدى الله أمهلها سبحانه وتعالى زمنا، ثم أرسل إليها الرسل ثم أمهلها مدة لتبليغ الدعوة إليها، فإذا أصرت على الكفر غير الله عز وجل نعمته عليهم بإبدالها بالعذاب أو الذل أو الأسر أو نقص في الأنفس والأموال والثمرات "[(4)].

الأمر الرابع:" وما ورد في سورة الأنفال من استبدال كلمة " ما " في سورة الرعد بكلمة " نعمة " حين قال تعالى:﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً اَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾. يدل على التعميم والتخصيص؛ إذ إن كلمة " نعمة " أخص من كلمة " ما " لأن كلمة " ما " تشمل النعم والنقم، بينما كلمة " نعمة " خاصة بالنعمة، لكنها مع ذلك عامة في جميع أنواع النعم، لا سيما وأنها جاءت نكرة. فكلمة " نعمة " تشمل: الصحة، والقوة،

---

(1) تفسير الشعراوي، (724/2).
(2) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص: 51.
(3) المصدر نفسه، ص: 59- 64.
(4) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: 1393هـ)، الناشر: الدار التونسية للنشر - تونس، السنة: 1984 هـ، (45/10).

والغنى، ونجابة الأولاد، ونظافة المساكن، والتماسك الاجتماعي، والمحبة، والمودة، والرخاء، والتعاون... إلخ "[1].

الأمر الخامس:" إن التغيير الذي ينبغي أن يحدث أولا: هو التغيير الذي جعله الله عز وجل مهمة المجتمع وواجبهم، وإن حدوث أي تهاون في الخلط بينه وبين التغيير الذي يخص الله جل ذكره يفقد هذه السنة فعاليتها وفائدتها. والرجاء بأن يحدث الله تعالى التغيير الذي يخصه قبل أن يقوم المجتمع بمهمة التغيير التي أناطه الله عز وجل بها يفضي إلى إبطال دور الإنسان ومكانته ومسؤوليته، وما منحه الله سبحانه من مقام الاستخلاف في الأرض "[2].

الأمر السادس:" إن سلوك الإنسان وتصرفاته هي نتيجة لأفكاره، وبتعبير أدق: لما بنفسه. فإذا تغير ما بنفس الإنسان - سواء كان بجهده أو بجهد غيره - فإن سلوكه لا محالة يتغير. وهذا التغيير يمكن أن يصل إلى درجة النقيض؛ كأن يتحول الإقدام إلى إحجام، أو الشجاعة إلى جبن، أو السرور إلى حزن، والعكس صحيح. فإذا تغير ما بالنفس تغير حالا سلوك الإنسان، ولا يعود يملك سيطرة على قواه، ويخضع خضوعا كاملا لما حل بنفسه. فمن يملك القدرة على تغيير ما بالنفس يملك أن يغير ما بالقوم "[3].

3 - شروط سنة التغيير:

العقيدة أولا: إن فكرة العقيدة تبقى الأساس المركزي الذي يستمد مقومات قوته وبقائه من خالق الكون والإنسان، وهو سبحانه أعلم بما يصلح أمر الكون والإنسان.

" **فالإيمان بالله** عز وجل شرط أولي لبسط النعمة أو العمران " الحضارة " بالمصطلح الاجتماعي، والعمل الصالح الذي يترجم هذا الإيمان إلى سلوك هو صمام الأمان في الحفاظ على هذه النعمة أو العمران. وبناء على هذا فإن العقيدة الصحيحة عامل جوهري في التغيير الاجتماعي نحو العمران "[4].

---

(1) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص: 72 - بتصرف -.
(2) حتى يغيروا ما بأنفسهم، جودت سعيد، ص: 76.
(3) المصدر نفسه، ص: 119-122. - بتصرف -.
(4) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، أحمد كنعان، ص: 153.

دور الزمان:" ثم يأتي دور الزمان باعتباره عاملا رئيسا من العوامل اللازمة لإنضاج عملية التغيير؛ ذلك أن التغيير النوعي في المجتمع يتطلب فترة زمنية كافية حتى يكتمل، ويؤتي ثماره يانعة سائغة، وأما محاولة حرق المراحل واستعجال التغيير قبل استكمال شروطه فإنه غالبا ما يجهض المحاولة من أساسها، وينسف الشروط الأولية التي بدأت منها، بل قد يحول دون توفر هذه الشروط مرة أخرى "(1).

فهم الواقع:" إن فهم الواقع الإنساني عامل بالغ الأهمية في الإعداد للتغيير، ولا يقل أهمية على فهم الدين نفسه؛ لأن المشكلة التي تعترض مسيرة التغيير هي عدم فقه الخطاب الشرعي؛ وتأصيل منهج التعامل معه، وكيفية تنزيله على الواقع البشري، الأمر الذي يقتضي فقه الخطاب وفقه الواقع في آن واحد...

وبناء على أن لكل عصر خصائصه ومميزاته ومستجداته التي يجب أن تعالج في إطار الأصول الكلية والقواعد العامة للدين، فإنه ينبغي التعامل مع الصور الجديدة للواقع بظروفه وشروطه، والإفادة مما يقدمه العصر من أدوات ووسائل وتقنيات تغني التجربة الإسلامية في التغيير...

على أن أدوات الرصد والتحليل هذه تتمثل أساسا في العلوم الإنسانية، وهي: علم النفس، والاجتماع، والاقتصاد، والإحصاء، والتاريخ، والتربية...

وتعد هذه العلوم آليات ضرورية لفهم الواقع وإدراك أبعاد الإنسان، والتعرف على مفاتيح شخصيته وطرائق تفكيره، والأسباب الكامنة وراء مشكلاته، وهو محل الحكم الشرعي الذي ينزل عليه...

فهذه العلوم بطرق بحثها وقوانينها أدوات ضرورية لكشف الواقع النفسي للفرد وللأمة فيما تشتمل عليه من مركبات أو أمراض أو عوائق، يكون من الضروري أخذها بعين الاعتبار حينما يراد تنزيل أحكام الدين في واقع الحياة الفردية والاجتماعية. وكذلك الأمر بالنسبة للتركيبة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فيما تعانيه من مشاكل، وفيما ترسب فيها من سلبيات عبر التاريخ أو عبر التفاعل مع الحضارات والثقافات الأخرى؛ فإن علم الاجتماع

(1) أزمتنا الحضارية في ضوء سنة الله في الخلق، 158 - 160.

والنفس والاقتصاد والإحصاء والتاريخ أدوات ضرورية في الكشف عن هذه المعطيات التي لا غنى عنها لفهم الواقع، حتى تتم عملية الموافقة والتكيف بين الحكم الشرعي ومحله بدقة "[1].

بناء المعرفة:" إن التغيير يجعل الحاجة ماسة إلى معرفة منصفة متوازنة لتستفيد من الخبرة الإنسانية كاملة، مع نوع من الانفتاح وممارسة النقد وفق معايير شرعية وعمرانية ومصلحية. ولا سبيل لتحريك المعرفة وفتح نوافذها للتغيير والتجديد سوى الاتجاه نحو التجربة واستقراء الواقع عن طريق الإحصاء والمقارنة والاهتمام بجزئيات الواقع وربطاها بأصولها، ثم استخلاص الأحكام والنتائج، وذلك في سبيل فهم أفضل للسنن، وفي سبيل تلمس وجود الانسجام بين الكتاب المقروء " القرآن الكريم " والكتاب المفتوح " الكون " بكل ما فيه "[2].

"...إنه إذا كان المطلوب من المعرفة أن تنهض بأي مجتمع وتخدمه، فإن عليه أن يتجه إلى الحياة، بسير أغوارها، ويفهم نظمها، وما فيها من تكيف وصرامة، وإمكانيات للمناورة والتصرف مع شروطها وقيودها، عبر فهم عميق للسنن على رأسها سنة التغيير "[3].

وخلاصة القول: إن التغيير المشار إليه في الآية الكريمة:﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ يمتد إلى سائر المكونات النفسية والاجتماعية لأي أمة، ويصدق على كافة مجالات الحياة وشبكة العلاقات الاجتماعية، ويمنح الإرادة الإنسانية إمكانية معرفة شروط التغيير، والقدرة على إدراك حقائق النفس الداخلية وطبيعة المواجهة مع حزب الشيطان، وهذه القدرة مفتاح كل تغيير...

وبتدبر الآية وتقصي أبعادها وسير آثارها في النفس والمجتمع يمكن التوصل إلى إقامة قواعد لمنهج علم اجتماعي قرآني يتحدى به علم النفس الاجتماعي الغربي الذي قطع شوطا

(1) السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول، محمد أمحزون، ص: 225-226.
(2) مدخل إلى التنمية المتكاملة، عبد الكريم بكار، رؤية إسلامية، دمشق: دار القلم، 1420هـ-2000م، ص: 123.
(3) المصدر نفسه، ص: 125.

بعيدا في هذا المضمار، ويتوصل به إلى تقنين سنن العمران، وكيفية تحريك الطاقات، وتفجير المواهب الإنسانية على المستوى النفسي، ثم الاجتماعي، ثم العمراني " الحضاري "...

ذلك أن أي أمة تتهيأ إرادتها للعمل والإبداع عن طريق شحذ القوة الداخلية الروحية والعاطفية والنفسية والعقلية إلا وكانت ذات قدرة هائلة الامتلاك رصيد استراتيجي ضخم في مجال المبادرات العمرانية "[1].

المطلب الثاني: سنة الله في الاستدراج والإملاء

1 - سنة الاستدراج لغة واصطلاحا:

أ - معنى الاستدراج لغة:

قال ابن منظور في لسان العرب:" دَرَّجَه إِلى كَذَا واسْتَدْرَجه، بِمَعْنًى، أَي أَدناه مِنْهُ عَلَى التَّدْرِيجِ، فتَدَرَّجَ هُوَ "[2].

وَرُوِيَ عَنْ أَبي الْهَيْثَمِ:" امْتَنَعَ فُلَانٌ مِنْ كَذَا وَكَذَا حَتَّى أَتاه فُلَانٌ فاسْتَدْرجه أَي خَدَعَهُ حَتَّى حَمَلَهُ عَلَى أَن دَرَجَ فِي ذَلِكَ "[3].

" استدرجه: رقاه من دَرَجَة إِلَى دَرَجَة وَجعله يدرج على الأَرْض وأقلقه حَتَّى تَركه يدرج على الأَرْض "[4].

" واستدرج الله العبد: أمهله ولم يباغته "[5].

" واستدرجه: خدعه وأدناه، كدرجه، وأقلقه حتى تركه يدرج على الأرض "[6].

(1) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، سلسلة الرسائل الجامعية (30)، القاهرة، ص: 275.
(2) لسان العرب، لابن منظور، (268/2).
(3) المصدر نفسه، (268/2).
(4) المعجم الوسيط، (277/1).
(5) المصدر نفسه، (277/1).
(6) القاموس المحيط، الفيروزآبادى، (188/1).

ب - الاستدراج اصطلاحا:

وقد عرفه الزمخشري:" الاستدراج: استفعال من الدرجة بمعنى: الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة "[1].

وقال أيضا:"استدرجه إلى كذا: إذا استنزله إليه درجة فدرجة، حتى يورطه فيه"[2].

وعرفه القرطبي:" والاستدراج هو الأخذ بالتدريج، منزلة بعد منزلة"[3].

وقيل:" وقيل: هو من الدرجة، فالاستدراج أن يحط درجة بعد درجة إلى المقصود"[4].

وقيل:" الاستدراج: ترك المعاجلة. وأصله النقل من حال إلى حال كالتدرج"[5].

"فالاستدراج الاستفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد أو الاستنزال، درجة بعد درجة"[6].

وعرفه الجرجاني:" الاستدراج: أن يجعل الله تعالى العبد مقبول الحاجة وقتا فوقتا إلى أقصى عمره للابتدال بالبلاء والعذاب"[7].

وقال:" هو أن تكون بعيدًا من رحمة الله تعالى، وقريبًا إلى العقاب تدريجيًا"[8].

وقال أيضا:" هو أن يرفعه الشيطان درجة إلى مكان عالٍ، ثم يسقط من ذلك المكان حتى يهلك هلاكًا"[9].

---

(1) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، ط: 3، السنة: 1407 هـ، (182/2).

(2) المصدر نفسه، (595/4).

(3) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، (329/7).

(4) المصدر نفسه، (329/7).

(5) المصدر نفسه، (252/18).

(6) مفاتيح الغيب التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط: 3، السنة: 1420 هـ (418/15).

(7) التعريفات، الجرجاني، (20/1).

(8) المصدر نفسه، (20/1).

(9) المصدر نفسه، (20/1).

والخلاصة أن الاستدراج هو: أن يعطي الله العبد كل ما يتمناه في الدنيا، فيزداد تعلّقه بما أعطاها، ويزداد بها ضلالا وفسادا وظلما، حتى إذا طال الزمان، أخذه الله أخذا أليما على حين غفلة.

2 - سنة الإملاء لغة واصطلاحا:

أ - الإملاء لغة:

والإملاء:" الإمهال والإمداد والإنظار. يقال أملى إملاء: أي: أطال له في غيه وأمهله. منه قيل للمدة الطويلة: ملاوة من الدهر " ﴿ وَاهْجُرْنِي مَلِيّاً ﴾ [سورة مريم آية 46]، أي زمنا طويلا. وملاك الله: عمرك أو أطال عمرك "[1].

ب - الإملاء اصطلاحا:

الإملاء هو الإمهال والتأخير وإطالة العمر[2].

3 - الفرق بين الإملاء والاستدراج:

أن الإملاء " هو الإهمال والتأخير، أما الاستدراج فهو أنه كلما جدد العبد خطيئة جدد الله له نعمه، وأنساه الاستغفار، إلى أن يأخذه قليلا قليلا، ولا يباغته، وعلى هذا بينهما عموم وخصوص، إذ كل استدراج إملاء وليس كل إملاء استدراجا "[3].

وقد اجتمع الاستدراج والإملاء في قوله تعالى:﴿ وَالذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ [سورة الأعراف: الآية 182]، فذكر الله عز وجل الاستدراج أولا ثم الإملاء ثانيا، لأن الإملاء آلة الاستدراج وأداته، وأتى في الاستدراج بأداة العظمة:﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾، وفي الإملاء بضمير الواحد ﴿ وَأُمْلِي ﴾، ولم يأت بهما على

(1) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، (776/1).

(2) لسان العرب، ابن منظور، (290/15).

(3) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ"قم"، الطبعة: 1، السنة: 1412هـ، (72/1).

نهج واحد، لأن الاستدراج يكون بواسطة وبغيرها، فتارة يكون من الله، وتارة يكون على يد عبيده وجنوده، أما الإملاء وهو تطويل الأجل فلا يكون إلا من الله عز وجل [1].

فالاستدراج إذن إمداد بالمتاع واغترار بأسباب المعرفة والقوة، ويتناول بذلك الأعمال. أما الإملاء فهو الإمهال والتأخير، ولذلك يختص بالزمن، وهو وعاء الأعمال.

ويفسر النبي صلى الله عليه وسلم الاستدراج بقوله:" إِذَا رَأَيْتَ اللهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ "[2] ، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم:﴿ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُواْ بِمَآ أُوتُوٓاْ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [سورة الأنعام: الآية 45].

فمن سنة الله تعالى أن يستدرج الكفرة والعصاة بأن يرزقهم الصحة والنعمة، فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد الكفر والمعاصي، فكلما جدد الله عز وجل لهم نعمة ازدادوا بطرا وأشرا، وجددوا معصية، فيتدرجون في المعاصي بسبب ترادف النعم عليهم، ظانين أن ذلك من الله تعالى إكرام لهم، وإنما هذه النعم خذلان منه وتبعيد واستدراج [3].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا[4]: وقد مضت سنته تعالى في العصاة والمكذبين أن يسترسلوا في غيهم وضلالهم، ويغترون بأموالهم وكثرتهم، ويزدادون بغيا وظلما، ولا يحسبون للعواقب حسابا بسبب إمهالهم أزمانا مديدة، إلى أن تكون عاقبتهم في النهاية بمقتضى الأسباب التي قام بها نظام الخلق، ومحصلتها أن عقاب الأمم والدول وحتى الأفراد أثر طبيعي

---

(1) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د: ط.ت، (178/8).

(2) أخرجه أحمد في المسند، مسند الشاميين، باب: حديث عقبة بن عامر الجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم، رقم: 17311، (547/28).

(3) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير، (516/3). الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري،(182/2). روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، (184/6). تفسير المنار، رشيد رضا، (375/9).

(4) هو: محمد رشيد بن علي رضا بن محمد القلموني ، البغدادي الأصل، الحسيني النسب، ولد سنة (1282هـ) نشأ بالقلمون بطرابلس تعلم بها ثم رحل إلى مصر سنة (1315هـ) فلازم الشيخ محمد عبد وتتلمذ عليه، رحل إلى العديد من البلدان ثم استقر بالقاهرة، وتوفي بها سنة (1354هـ). أنشأ مجلة (المنار) وأصدر منها 34 مجلدا. وله تصانيف مفيدة منها: الوحي المحمدي، يسر الإسلام وأصول التشريع العام، تفسير القرآن الكريم، اثنا عشر مجلدا منه ولم يكمله. الأعلام (126/6) معجم المطبوعات ص: 934 .

لما كسبت أيديهم؛ فالأمم والدول والشعوب الباغية الظالمة لابد أن يزول سلطانها، وتدوم دولتها، والسكير والزاني لا يسلمان من الأمراض التي سببها السكر والزنا، والمقامر قلما يموت إلا فقيرا معدما [1].

ومما سبق يتبين لنا أن الاستدراج والإملاء والتمتيع كلها تصور حال الأمم في مرحلة معينة من مراحلها، هي مرحلة اللامبالاة، وبتعبير أشمل: مرحلة السقوط الحضاري. وهي مرحلة يسيطر فيها الظلم بشتى صوره، وينتشر الفساد بأنواعه، ويجترئ الناس على الفضيلة فيسخرون منها ومن أهلها، ويألفون الرذيلة ويتواصلون بها، ويختفي ميزان الشرع وسلطان العقل، ويحضر ميزان الهوى، وسلطان الشهوات، إذ هانت على نفسها، فما يكون بينها وبين الهلاك والدمار إلا أن تستكمل أسبابه المقدرة في علم الله، وإلى أن يبلغ الكتاب أجله. وهذا هو معنى استدراجها نحو مصرعها [2].

4 - سنة الاستدراج والإملاء في القرآن الكريم:

1 - قوله تعالى:﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [سورة القلم: الآية 44-45].

يقول الألوسي في تفسير:﴿ فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ﴾ أي: إذا كان حالهم ما سمعت فكل من يكذب بالقرآن إليّ واستكفنيه فإن في ما يفرغ بالك ويخلي همك وهو من بليغ الكلام يفيد أن المتكلم واثق بأنه يتمكن من الوفاء بأقصى ما يدور حول أمنية المخاطب وبما يزيد عليه [3].

يقال: ذرني وإياه، يريدون كله إليّ، فإني أكفيكه، كأنه يقول: حسبك إيقاعا به أن تكل أمره إليّ وتخلى بيني وبينه، فإني عامل بما يجب أن يفعل به مطيق له، والمراد: حسبي مجازيا لمن يكذب بالقرآن، فلا تشغل قلبك بشأنه وتوكل عليّ في الانتقام منه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وتهديدا للمكذبين [4].

---

(1) تفسير المنار، محمدرشيد رضا، (379/9).
(2) سنن الله في الأمم من خلال القرآن الكريم، حسن الحميد، ص: 357.
(3) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، (41/15).
(4) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، (595/4).

﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾: أي اتركني يا محمد ومن يكذب بهذا القرآن لأكفيك شره وأنتقم لك منه!! وهذا منتهى الوعيد [1].

﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ [سورة القلم: الآية 45]. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ "[2] ، والظالم هو بالضرورة كاذب؛ لأنه يتلاعب بالحقائق، ولا يهمه- في معمعة ظلمه - أن يمارس الكذب، للتغطية على ظلمه. " إنه سبحانه يمهل ولا يهمل، ويملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته. وهو هنا يكشف عن طريقته وعن سنته التي قدرها بمشيئته، ويقول لرسوله صلى الله عليه وسلم:﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ﴾، وخل بيني وبين المعتزين بالمال والبنين والجاه والسلطان، فسأملي لهم، وأجعل هذه النعمة فخهم فيطمئن رسوله، ويحذر أعداءه.. ثم يدعهم لذلك التهديد الرعيب [3].

إن طبيعة الاستدراج تكمن في الإملاء، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، والاستدراج درجة أولى قررها الله لمن يريد استدراجه، ثم يطيل الله مدة الاستدراج فيصير إملاء، عل من يستدرج يؤوب إلى رشده، وفي ذلك عدل من الله ورحمة.

﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾أي: أمهلهم وأطيل لهم مدة عمر هم ليتمادوا في المعاصي ولا أعاجلهم بالعقوبة على المعصية ليقلعوا عنها بالتوبة والإنابة [4].

إن الاستدراج على حقيقته قد ظهر بهذا الجزء من الآية : ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾، ليشي بمقدار رحمة الله العظيمة بعباده، وبمقدار عدله الذي ليس فوقه عدل، فكم أمهل الخالق خلقه ليصلحوا شأنهم، وكم أدار الخلق لهذا الإمهال وجوههم في صفاته عجيبة، ولما يزل الله يرأف بعباده ﴿ ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ ﴾ [سورة الشورى: الآية 17]، وهم يبدون من تحجر القلوب، وتبلد المشاعر ما لا يدركون خطر تحجرهم وتبلدهم، الله يتفضل عليهم بالرحمة والرأفة، وهم مازالوا يقابلون ذلك بالإعراض والعناد والاستكبار ولا يعني الاستدراج قصد

(1) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار: الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، ط: الأولى، السنة1417 هـ - 1997 م. ، (406/3).

(2) صحيح البخاري، كتاب: تفسير القرآن، باب: وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى، رقم: 4686، 74/6.

(3) في ظلال القرآن، سيد قطب، (3668/6-3669).

(4) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، (418/15).

إيقاع الشر بالعباد من قبل الله تعالى، إنما كان الاستدراج لمن صد عن منهج الله وأصر على ذلك، ولمن جاءته نعم الله ولم يشكرها، بل قابلها بالمعاصي والآثام، وهذا هو المقصود من الاستدراج، والله لا يظلم الناس، ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

أما وجه الإمهال، فإن الله تعالى يريد إقامة الحجة على من كذبوا الحق وحاربوه، حين يمنحهم الفرصة تلوا الفرصة.

ثم هو سبحانه يريد أن تكون نتيجة هذا الإمهال بعد التكذيب والعناد، من القوة والشدة بمكان، لأنه فرق بين أن يكون الإمهال بالإعجال أو بمدة محدودة ضيقة، وبين أن يكون الإمهال بمدة طويلة وحينئذ لا عذر للممهل أبدا.. ولذا يأتي عقاب الله شديدا:﴿ إِنَّ كَيْدِے مَتِينٌ﴾.

وهناك وجه آخر للإمهال، وهو أن يزداد الممهلون إثما على إثم فتتراكم الآثام حتى تحين ساعتهم،﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ وأمهلهم ليزدادوا إثما وهم يزعمون أن ذلك لإرادة الخير بهم[1].

" وقد يملي للكفار ويرسل السماء عليهم مدرارا، ويمددهم بأموال وبنين ويستدرجهم من حيث لا يعلمون. إما ليأخذهم في الدنيا أخذ عزيز مقتدر، وإما ليضعف عليهم العذاب في الآخرة، فليس كل إنعام كرامة، ولا كل امتحان عقوبة، قال الله تعالى:﴿ فَأَمَّا اَلاِنسَٰنُ إِذَا مَا اَبْتَلِيٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَكْرَمَنِ ۦ وَأَمَّآ إِذَا مَا اَبْتَلِيٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ (17) فَيَقُولُ رَبِّيَ أَهَٰنَنِ ۦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ اَلْيَتِيمَ ﴾ [سورة الفجر: الآية 15-19][2].

وعليه فإنَّ " الإمهال مهما طال، فهو إلى أجل مسمى، ولذا قال الله تعالى:﴿ اَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِے اِلْخَيْرَٰتِۖ بَل لَّا يَشْعُرُونَۖ ﴾ [سورة المؤمنون: الآية 56-57]...، وقال سبحانه﴿ إِنَّ كَيْدِے مَتِينٌ﴾، وتسمية ذلك كيدا وهو ضرب من الاحتيال، لكونه في صورته، حيث إنه سبحانه يفعل معهم ما هو نفع لهم ظاهرا ومراده عز وجل به الضرر لما علم من خبث جبلتهم وتماديهم في الكفر والكفران "[3].

(1) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، (58/29).
(2) مجموع فتاوى، ابن تيمية، 443/11.
(3) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، للآلوسي، 58/29.

وهكذا فإن الله تعالى سمى إنعامه على المستدرجين كيدا، قال الزمخشري في تفسير الكيد:" سماه كيدا لأنه شبيه بالكيد من حيث إنه في الظاهر إحسان وفي الحقيقة خذلان "[1].

﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾. والكيد هو المكر[2]. ولمزيد توضيح في هذه المسألة، أنقل ما ذكره " الألوسي " في التفريق بين الاستدراج والإملاء " الإمهال "، إذ يقول:" الإمهال ليس من الأمور التدريجية كالاستدراج الحاصل في نفسه شيئا فشيئا، بل هو مما يحصل دفعة "[3].

وذكر القرطبي أن هذه الآية:﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾: نزلت في المستهزئين من قريش، قتلهم الله في ليلة واحدة بعد أن أمهلهم مدة [4].

غير أن الألوسي شكك في ذلك حين قال:" وادعى بعض المفسرين أنها نزلت في المستهزئين من قريش أمهلهم الله تعالى ثم أخذهم في يوم بدر "[5].

وينقل الرازي كلاما مفيدا لأبي علي الجبائي " بأن المراد من الاستدراج، أنه تعالى استدرجهم إلى العقوبات حتى يقعوا فيها من حيث لا يعلمون، استدراجا لهم إلى ذلك حتى يقعوا فيه بغتة، وقد يجوز أن يكون هذا العذاب في الدنيا كالقتل والاستئصال، ويجوز أن يكون عذاب الآخرة.

وفي زيادة توضيح يقول الجبائي في تفسيره لآية القلم:﴿ سَنَسْتَدْرِجُهُم ﴾ إلى العذاب من حيث لا يعلمون في الآخرة، ﴿ وَأُمْلِي لَهُمْ ﴾ في الدنيا توكيدا للحجة عليهم، ﴿ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴾ فأمهلهم وأزيح الأعذار عنهم ﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [سورة الأنفال: الآية 43]، فهذا هو المراد من الكيد المتين.

2 - وقوله عز وجل:﴿ وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [سورة آل عمران: الآية 178].

---

(1) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، 182/2

(2) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 601/10.

(3) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، ص: 168.

(4) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 209/4.

(5) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، الألوسي، 169/9.

وهذه الآية الكريمة تكشف عن سنة أخرى من سنن الاجتماع البشري، وهي أن الإنسان يبلغ الخير بعمله الحسن، ويقع في الضير والسوء بتقصيره في العمل الصالح وتشميره في عمل السيئات، والعبرة بالخواتيم. وكأن الآية تقول: إن هذا الإملاء للكافرين ليس عناية من الله بهم، وإنما هو جري على سنة الله في الخلق؛ وهي أن ما يصيب الإنسان من خير أو شر هو ثمرة عمله: ﴿ فَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَهُۥ وَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُۥ ﴾ [سورة الزلزلة: الآية 8-9]. ومن مقتضى هذه السنة العادلة أن يكون الإملاء للكافر علة لغروره، وسببا لاسترساله في فجوره، فيزداد إثما، مما يكون في النهاية سببا لهلاكه [1].

ومن سنن الله في طباع البشر أن الإنسان كلما عمل على شاكلته وطريقته قويت وترسخت بالعمل، والإثم داعية الإثم، كما أن الخير يمد بعضه بعضا، فما من سجية وخلق في الإنسان إلا ويزيدها العمل تجذرا ورسوخا في نفسه. ولهذا من شأن الكافر أن يزداد كفرا وتماديا في الباطل بطول العمر والتمكن من العمل بحسب استعداده وقابليته للشر، فتزداد سيئاته وتكون عاقبته الهلاك في الدنيا، والخسران في الآخرة [2].

وها هو إذا الله سبحانه وتعالى يذر الذين كفروا من الغرور ومن الظن بالله غير الحق؛ إنه إذا كان لا يأخذهم بأعمالهم السيئة ويكفرهم الذي يسارعون فيه، وإذا كان يعطيهم حظا من الدنيا يستمتعون به ويلهون فيه، وإذا جل ثناؤه يأخذهم بهذا الامتحان، فإنما هي الفتنة، وإنما هو الكيد المتين، والإملاء والاستدراج البعيد [3].

وقد بين ذلك سبحانه في آيات أخر ونوع في الأساليب، قال سبحانه:﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ اَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذتُّهَا وَإِلَيَّ اَلْمَصِيرُ ﴾ [سورة الحج: الآية 46]. وقوله تعالى:﴿ وَلَقَدُ اُسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذتُّهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴾ [سورة الرعد: آية 33].

وظاهر هذه الآيات أن الإملاء " بالفاء " والأخذ يأتي مع " ثم "، أي أن الإملاء يأتي مباشرة بعد التكذيب، وأما الأخذ فيأتي على المدى، بما يشير إلى أن الإملاء قد يطول مع

(1) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 250/4.
(2) المصدر نفسه، 250/4-251 بتصرف.
(3) في ظلال القرآن، سيد قطب، 524/1.

الكفر والتكذيب[1]؛ إذ من سنة الله الجارية أن يملي للكفار في الأرض قبل أن يهلكهم. فهو سبحانه يذر المغترين بالمال والبنين، والمغترين بالجاه والسلطان يسرحون في أمانيهم ويتقلبون في نعيمهم، ويعمهون في غيهم وضلالهم، ويجعل نعمه فخا لهم، ويمهلهم حينا من الدهر، ولكن لا منجى لهم من المصير المحتوم والسنة المطردة في هلاك الكافرين المفسدين.

5 - أنواع الاستدراج والإملاء:

نعم الله على العبد لا تعد ولا تحصى، فيجب أن تقابل بالشكر والثناء على الله عز وجل، هذا هو منهاج المؤمن في حياته، فإذا غفل عن شكر المنعم الوهاب فهو مقصر وغافر، وأما أن يقابل النعمة بالمعصية فهو مستدرج، والاستدراج أنواع:

أولا: الاستدراج بتأخير العقوبة:

إن الله عز وجل لا يعاجل العصاة بالعقوبة، وإنزال العذاب، بل يؤخرهم ويمهلهم، قال تعالى:﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٞ لَّنْ يَّجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلاٗۖ﴾ [سورة الكهف: الآية 57]، قال الشيخ الشنقيطي في الآية الكريمة: " أنه لو يؤاخذ الناس بما كسبوا من الذنوب كالكفر والمعاصي لعجل لهم العذاب لشناعة ما يرتكبونه، ولكنه حليم لا يعجل بالعقوبة، فهو يمهل ولا يهمل ، وقال تعالى:﴿ وَلَا يَحْسِبَنَّ ٱلذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِے لَهُمْ خَيْرٞ لِّأَنفُسِهِمُۥٓۖإِنَّمَا نُمْلِے لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْماٗۖ وَلَهُمْ عَذَابٞ مُّهِينٞۖ ﴾ [سورة آل عمران: الآية 178]، قال الإمام الطبري في تفسير هذه الآية: إنما نؤخر آجالهم فنطيلها، فيكتسبون المعاصي، ويزدادون إثما، فهؤلاء لهم عقوبة مهينة مذلة[2].

إن من أسماء الله عز وجل وصفاته أنه الغفور الرحيم، ولكي تتحقق أسماؤه وصفاته العلا؛ فهو لا يعاجل العباد بالعذاب والهلاك والعقوبة، وإنما يؤخرهم لأجل، لعلهم أن يتوبوا ويسلموا، قال تعالى:﴿ وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ ٱلْعَذَابَۚ بَل لَّهُم مَّوْعِدٞ لَّنْ يَّجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلاٗۖ﴾ [سورة الكهف: الآية 57].

---

(1) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، محمد قطب، ص: 56.
(2) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، 423/7.

إن من صفاته تعالى الحلم، ومن أسمائه الحسنى الحليم، فهو لا يعجل بالعقوبة، بل يمهل لخلقه من غير إمهال، ولن تفوته عقوبتهم لو أراد، لأن العجلة من صفات من يخاف الفوت، والله عز وجل لا يفوته شيء، قال تعالى:﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِظُلْمِهِم مَّا تَرَكَ عَلَيْهَا مِن دَآبَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَآءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَـْٔخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾ [سورة النحل: الآية 61].

إن من أسماء الله الحسنى وصفاته العلا، العزيز المنتقم الجبار، فإن من كفر نعم ربه، وأصر على كفره وعناده، فإن في تأخير العذاب عنه زيادة في إثمه، حتى يوافي ربه العزيز المنتقم، وقد ازداد إثمه، وأحاط به جرمه، وانقطع عذره، وذهبت حجته، قال تعالى:﴿ فَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾ [سورة إبراهيم: الآية 49].

إن عذاب الكفار حاصل ولا شك في الآخرة، وإن التأخير فيه إنما لأنه لم يحن وقته الذي قدره الله تعالى عليهم، وهو يوم القيامة، قال تعالى:﴿ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [سورة طه: الآية 127].

ليفتح الله للناس أبوابا للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال تعالى:﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة آل عمران: الآية 104]، فيأخذوا الأجر العظيم من الرب الكريم، فيكونوا خير أمة أخرجت للناس.

ثانيا: الاستدراج بالنعم

الاستدراج بالنعم ابتلاء وأي ابتلاء. والله تعالى بين للناس حقيقة الدنيا التي فيها يعيشون، فهي متاع الغرور، فحذر منها: قال تعالى:﴿ ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ ٱلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمًا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٌ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلْغُرُورِ ﴾ [سورة الحديد: الآية 19]. وهو بذلك سبحانه يضع الناس أمام حقائق ثابتة لا تتبدل ولا تتغير.

ولئن كان التكذيب بآيات الله تعالى وبرسوله صلى الله عليه وسلم، استدراجا يستحق بسبب المكذبين أشد العقوبة من الله سبحانه، فإن الكفر بنعم الله عليهم وجحودهم إياها، وعدم شكر الله عليها هو استدراج أيضا، يستحق هؤلاء بسببه أشد العقوبة من الله جلت قدرته، قال سفيان الثوري: " نسبغ عليهم النعم وننسيهم الشكر "[1].

وهذا الإنساء للشكر استدراج بحد ذاته، لا يقل أهمية ولا خطورة عن استدراج الله بالنعم، بل إن الله تعالى قد يجدد المعصية للعبد بتجديد النعمة له، قال الضحاك في تفسير آية الأعراف: " كلما جددوا لنا معصية جددوا لهم نعمة "[2]. قال الرازي: "فالمعنى سنقربهم إلى ما يهلكهم، ونضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم، وذلك لأنهم كلما أتوا بجرم أو أقدموا على ذنب فتح الله عليهم بابا من أبواب النعمة والخير في الدنيا، فيزدادون بطرا "[3]، " ويتدرجون في المعاصي بسبب ترادف تلك النعم، ثم يأخذهم الله دفعة واحدة على غرتهم أغفل ما يكون "[4].

والله تعالى قد يعطي الفاسق من النعم أكثر مما يعطي الشاكر، وهذا استدراج له عظيم، ف " إعطاؤه الفاسق المقيم على معصيته استدراج، كما قال تعالى:﴿ وَالذِينَ كَذَّبُواْ بِأَيَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الأعراف آية 182][5].

وصفوة القول مما تقدم، أنَّ الاستدراج بالنعم يأتي على صور متنوعة:

أولا: إسباغ نعم الله تعالى على عبده، واستدراجه بها، فإمّا أن يشكر أو يكفر.

ثانيا: الزيادة في الاستدراج عن طريق إنساء العبد الشكر على النعمة.

ثالثا: تجديد النعمة والزيادة فيها مع تجديد المعصية والإصرار عليها، وهذا أشد أنواع الاستدراج.

---

(1) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، 164/9.
(2) المصدر نفسه، 209/4.
(3) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، 77/8.
(4) المصدر نفسه، 77/8.
(5) المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، محمد الصالح العثيمين ، مكتبة طبرية، الرياض- السعودية، ط: 1، السنة: 1413هـ-1993م، ص: 208.

المطلب الثالث: سنة الاستخلاف

لا غرو أن القرآن الكريم صرّح في غير موضع بأن غاية خلق الإنسان هي الاستخلاف في الأرض، يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي اِ۬لْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [سورة البقرة آية 29] وكلمة -الجعل- في قوله تعالى: ﴿ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي اِ۬لْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴾ تفيد أن هذا الكائن ليس مخيّرا في أن يكون خليفة أو لا يكون، بل هو خليفة بمقتضى الجعل الإلهي، أي أنه خليفة بمقتضى الخلق والجبلّة والفطرة "[1].

وهكذا اقتضت سنة الله في خلقه أن يسلّم زمام الأمور للإنسان ليتولى مهمّة الخلافة في الأرض، بمقتضى الفطرة.

أولا: التعريف بسنة الاستخلاف:

فحقيقة الخلافة أنها:" عبادة طوعية لله تعالى بالتزام هديه وشرائعه ينشأ عنها ضبط للسلوك الإنساني في علاقته مع الله وعلاقته بالكون والمخلوقات بحيث تسير الحياة الإنسانية ضمن إطار الصلاح"[2].

وعرّفها فاروق الدسوقي بقوله:" هي علاقة بين الإنسان المستخلف وبين الله تعالى الذي استخلفه من جهة، وعلاقة بين الإنسان الخليفة وبين ما استخلفه الله عليه في الأرض"[3].

وانطلاقا ممّا ذكر يمكن القول بأن سنة الاستخلاف خاضعة للعلاقة بين الإنسان بصفته مُستخلَفاً في الأرض، وبين ربه الله استخلفه فيها، وكذلك بين الإنسان وبين ما استُخلِفَ عليه، وذلك من أجل ضبط منهج الإنسان وسلوكه في هذه الحياة، سواء تعلّق الأمر بعلاقته مع أخيه الإنسان، أو مع غيره من المخلوقات والكائنات في الأرض.

(1) استخلاف الإنسان في الأرض، فاروق أحمد دسوقي، طبعة دار الدعوة، القاهرة - مصر، ط:1، (د.ت)، ص: 05.
(2) الخلافة في الأرض، حسن فرحات، دار الأرقم / الكويت، ط:1، 1406 هـ / 1986 م، ص: 21.
(3) استخلاف الإنسان في الأرض، فاروق الدسوقي، ص: 26.

يقول محمد قطب:" فالخلافة في الأرض تتضمن معنى التمكين والسيطرة عليها والهيمنة على ما فيها، كما تتضمن أيضا عمارتها...، فالإنسان قد خلق إذن ليكون سيد هذه الأرض والحاكم فيها بإذن الله ومشيئته...، والإنسان قد خُلق في الوقت ذاته ليعبد الله؛ ومقتضى ذلك أن تكون الخلافة في الأرض "(1).

فسنة الاستخلاف حسب كلام محمد قطب، تأخذ طابع التمكين والسيطرة، مما يمكن الإنسان من عمارة الأرض، وذلك كلّه لا يخرج عن إرادة الله ومشيئته.

ويقول الراغب الأصفهاني في كتابه: الذريعة إلى مكارم الشريعة:" والفعل المختص بالإنسان ثلاثة أشياء:

1/ عمارة الأرض المذكورة في قوله تعالى ﴿ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [سورة هود آية 60] ، وذلك تحصيل ما به تزجيته المعاش لنفسه ولغيره.

2/ وعبادته المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ أُلْجِنَّ وَالِانسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِّ ﴾ [سورة الذاريات آية 56] ، وذلك هو الامتثال للباري عز وجل في أوامره ونواهيه.

3/ وخلافته المذكورة في قوله جل شأنه: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِے اِ۬لَارْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [سورة الأعراف آية 128] ، وغيرها من الآيات، وذلك هو الاقتداء بالباري سبحانه على قدر طاقة البشر باستعمال مكارم الشريعة "(2).

ثانيا: أنواع الاستخلاف:

ينقسم الاستخلاف إلى قسمين:

استخلاف عام واستخلاف خاصّ:

1/ الاستخلاف العام:

والاستخلاف:" العام هو تولية البشر الأرض باعتبارهم قائمين بشؤون العمارة وبناء الحضارة وفق منهج الله المرسوم في كتبه المنزّلة.

---

(1) حول التفسير الإسلامي للتاريخ، محمد قطب، ص: 58 - 59، - بتصرف -.

(2) الذريعة إلى مكارم الشريعة، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ) تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار النشر: دار السلام - القاهرة، السنة: 1428 هـ - 2007 م. ، ص: 90.

وهدف الاستخلاف بهذا المعنى هو القدرة على عمارة الأرض والإصلاح فيها، والقدرة على تمنية الحياة وتنويعها واستغلال خيراتها واستثمار مدخراتها، والقدرة على تحقيق العدل والأمن والسلام، والقدرة على الارتقاء بالمجتمعات البشرية مادياً ومعنوياً إلى الكمال المقدر لها في الأرض، اللائق بخليقة أكرمها الله تعالى.

والخلافة بهذا المعنى كونية تقوم على مبدأ استخلاف البشر، واستخلاف البشر في الأرض سنة ثابتة لا تتبدل منذ قال الله جل ذكره للملائكة: ﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي اِ۬لْأَرْضِ خَلِيفَةٗۖ﴾ [سورة البقرة آية 29] ، وهي خلافة عامة تقوم على مبدأ الصلاحية والأفضلية والخيرية، وتشمل جنس البشر بكامله، على أن سنّة الله جرت بإهلاك المكذبين المنحرفين عن هديه، المفسدين في الأرض﴿ وَلَقَدَ اَهْلَكْنَا اَ۬لْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْۖ كَذَٰلِكَ نَجْزِے اِ۬لْقَوْمَ اَ۬لْمُجْرِمِينَۖ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِي اِ۬لْأَرْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَۖ ﴾ [سورة يونس آية 13-14]

ثم يجيء الله عز وجلّ بأمم أخرى تستخلف بدل الهالكين، لينظر سبحانه وتعالى ماذا سيفعل هؤلاء المستخلفون في الأرض؟ هل يتخذون الهالكين مثلا يتحذى بهم؟ فيستحقّون من العقاب ما استحقّوا، أم ينهجون نهج الحقّ ويقومون بمسؤولية الاستخلاف ومقتضياته من عمارة الأرض بالصلاح والبناء والعدل، واستكشاف ما في الأرض من قوى مدخورة وطاقات وكنوز لخدمة الإنسان نفسه "[1].

ويقرر سيد قطب - رحمه الله - هذه الحقيقة إذ يقول:"... ومما ينبغي التأكيد عليه أن هناك وحدة وتناسقا بين السنن التي تحكم الأرض وتحكم الكون كله والسنن التي تحكم الإنسان والطاقات والاستعدادات الكامنة فيه، كي لا يقع التصادم بين هذه السنن وتلك، وكي لا تتحطم طاقة الإنسان على صخرة الكون الضخمة " [2].

(1) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، سلسلة الرسائل الجامعية (30)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - القاهرة ، السنة: 1417هـ-1997م، ص: 288.
(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، (56/01).

ولهذا السبب " كانت الرسل والأنبياء - عليهم السلام - يتخوفون على أممهم المستخلفة في الأرض العقوبات والمثلات، في الوقت الذي ترفض فيه الأمم أن تدرج مسألة الإيمان بالله وتحكيم شريعته ضمن الشروط اللازمة للبقاء في الأرض جهلا واستكباراً "[1].

والخلاصة أن الغاية من الاستخلاف العام للبشر إذا تقوم على أساس العبودية لله تعالى وتحكيم شرعه ومنهاجه، وعمارة الأرض وفق منهجه سبحانه وتعالى، والاستفادة من قصص السابقين وأخذ العبرة منها لتجنب العقوبات الإلهية...

وهكذا يكون بقاء الاستمرار العمراني الذي ينتقل بين الأمم والأجيال السابقة واللاحقة، ويحقق الرقي الحضاري والازدهار العمراني، دون أن يخرج ذلك عن سنن الله في كونه وخلقه.

2/ الاستخلاف الخاص:

يقول الباري جل جلاله: ﴿ وَعَدَ اَللَّهُ اُلذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ اُلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِے اِلَارْضِ كَمَا اَسْتَخْلَفَ اَلذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ اُلذِے اِرْتَضيٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمُۥٓ أَمْناٗۖ يَعْبُدُونَنِے لَا يُشْرِكُونَ بِے شَيْـٔاٗۖ ﴾ [سورة النور آية 53]

فالتوحيد والإيمان والعمل الصّالح مناط الاستخلاف الخاص، فهو من خصوصيات المؤمنين، وهو وعد من وعود الله التي لا تتخلّف للذين آمنوا وعملوا الصّالحات في كلّ عصر ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِے اِلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ اِلذِّكْرِ أَنَّ اَلَارْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ اَلصَّٰلِحُونَۖ ﴾ [سورة الأنبياء آية 104].

ومناطه التوحيد والإيمان والعمل الصّالح؛ ويدخل في هذا كل ما أمر الله عزّ وجلّ به من توفير أسباب القوة، وإعداد العدّة بالوسائل المتاحة لحمل الأمانة الكبرى في الأرض بإعمارها وإصلاحها، وتحقيق الحقّ والعدل والأمان والطمأنينة لساكنيها من الأمم والمجتمعات المختلفة الألوان والأعراق والأجناس، وتحقيق السمو الرّوحي والرقيّ الأخلاقي والمادّي الذي يجعل الإنسان أهلا لهذا التكريم "[2].

---

(1) سنن الله في الأمم من خلال القرآن الكريم، حسن الحميد - دراسة موضوعية - رسالة جامعية نوقشت في جامعة الإمام محمد بن سعود، في كلية أصول الدين، قسم القرآن وعلومه، الرياض، ص: 307.

(2) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، ص: 292.

" وقد جرت سنّة الله أن يكون هذا الاستخلاف للمؤمنين الصّالحين المصلحين العاملين، يتوارثونه أمة بعد أمّة، وجيلا بعد جيل، بواسطة هذه الأصول الثلاثة: التوحيد، والإيمان، العمل الصالح، ليتحقق في الأرض ما شاء الله عز وجل من عدل وحق وإزهاق للباطل، لتسير البشرية خطوات رشيدة نحو الكمال والسعادة، والهناء والحرية، والمساواة في الحقوق والواجبات، وتحقيق القيم الرفيعة التي دعا إليها الأنبياء وأتباعهم من العلماء والدعاة الصّالحين والمجاهدين المخلصين "[1].

والاستخلاف الخاص هو مقدّمة لحصول التمكين للمؤمنين في الأرض؛ حيث قرن الأمران في الآية الكريمة، وجاء التمكين كنتيجة مطردة، وقضية حتمية بعد الاستخلاف الخاصّ، ولتلازم الأمرين، فقد تحدث الله عز وجل عن الاستخلاف ثم عن التمكين وعطف بينهما في قوله سبحانه: : ﴿ وَعَدَ اَللَّهُ اُلذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ اُلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِے اِلَارْضِ كَمَا اَسْتَخْلَفَ اَلذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ اُلذِے اِرْتَضيٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمُۥٓ أَمْناٗ يَعْبُدُونَنِے لَا يُشْرِكُونَ بِے شَيْـٔاٗ ﴾ [سورة النور آية 53]

وتمكين الدين يتم في القلوب أولا، ثم في تصريف شؤون الحياة وأمور الخلق وتدبيرها وفقا لأحكام الإسلام، بجعله هو المهيمن على شؤون الحياة وأمور الناس بالإصلاح والعدل، وحفظ الحقوق لأصحابها، والحرص على هداية البشر، وإعمار الأرض، والانتفاع بكل ما أودعه الله عز وجلّ فيها من ثروة، مع التوجّه بكل نشاط فيها إلى الله تعالى.[2]

وصفوة القول إن الاستخلاف الخاص يكون للمؤمنين العاملين بمقتضى المنهج الإلهي الذي ارتضاه الله لعباده، وقوام هذا الاستخلاف على مرتكزات ثلاث، وهي: التوحيد، والإيمان، والعمل الصّالح، ليقوم المؤمن المستخلف بمهمته أحسن قيام، من دعوة للحق ودفع للباطل ونشر للقيم الفاضلة، وغيرها من الأعمال التي تساهم في بناء الحضارة والارتقاء بالإنسان.

(1) المصدر نفسه، ص: 293 - 294.

(2) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (09 / 69) / سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، ص: 293 - بتصرف -.

وكذلك فإن الاستخلاف الخاص بالمؤمنين هو وسيلة لتحقيق التمكين، فالأول مقدمة والثاني نتيجة حتمية لازمة إذا استوفت المقدمة شروطها واستكملت مقوماتها.

ثالثا: مؤهلات الاستخلاف في ضوء التوجيه القرآني:

حدّدت سورة البقرة في قصّة استخلاف آدم عليه السلام مؤهِّلَيْن أساسيين للاستخلاف في الأرض وعمارتها، وهما: **العلم، والهدى**.

فأما المؤهّل الأول فهو:" **العلم** " وقد ذكر في قوله جلّ ثناؤه: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ۝﴾ [سورة البقرة آية 30-32]

فقد أعطى المولى جل جلاله الإنسانَ مقوّماً أساسيا للخلافة في الأرض حين علّم آدم عليه السلام الأسماء كلّها؛ أي أودع في نفسه علم جميع الأشياء بدون تحديد ولا تعيين.[1]

وقد استطاع آدم عليه السلام أن يحاجج الملائكة بخصّيصة العلم، حين عجزوا عن الإنباء بأسماء ما عُرض عليهم، وأقروا بعدم معرفتهم، منزهين الله عز وجلّ مقدسين له، متبرئين من علمهم، أما آدم عليه السلام فقد أنبأ بأسمائهم، فكان ذلك أكبر دليل على أهلية هذا المخلوق وأحقيته بالخلافة، وما استحقّ ذلك إلا بالعلم.

فالإنسان استحقّ أن يكون خليفة الله في الأرض؛ لأنه أوتي من العلم والمعرفة بحقائق الكون ومن الاستعداد لتلقي أحكام الله وشرائعه في سياسة الخلق ما لم يؤته مخلوق غيره، ولا الملائكة المقربون...، فمنزلة العلم والمعرفة هي الخصّيصة التي امتاز بها الإنسان، والتي رفعه الله بها فوق كل منزلة لكلّ مخلوق، وهي التي نيط بها مقام الاستخلاف.[2]

---

(1) تفسير المنار، رشيد رضا، (01 / 263) / سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، ص: 199 -بتصرف -.

(2) القرآن العظيم؛ هدايته، وإعجازه، محمد الصّادق عرجون، ص: 260 - 261-بتصرف -.

أما المؤهّل الثاني للاستخلاف في الأرض وعمارتها فهو:" **الهدى** " وقد ذُكِر في قوله تعالى: ﴿ قُلْنَا اَهْبِطُواْ مِنْهَا جَمِيعاًۖ فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُم مِّنِّے هُديٗ فَمَن تَبِعَ هُدايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَۖ﴾ [سورة البقرة آية 37]

وذُكر أيضا في قوله جلّ ثناؤه: ﴿ قَالَ اَهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعاًۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّۖ فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُم مِّنِّے هُديٗ فَمَنِ اِتَّبَعَ هُدايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقيٰۖ وَمَنَ اَعْرَضَ عَن ذِكْرِے فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكاً وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ اَلْقِيَٰمَةِ أَعْميٰۖ﴾ [سورة طه آية 120-122]

فالآيات الكريمة تشير إلى شرط أساس للخلافة وهو: اتباع هدى الله تعالى، اتقاءً للضلال والشقاء.[1]

فالعلم والهداية إذا هما مقومان أساسيان للاستخلاف، ولا يمكن الاستغناء عنهما أبدا.

(1) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، ص: 294 -بتصرف - / حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، ص: 97، - بتصرف -.




الفصل الثاني:

مقاصد السنن الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم

وفيه ثلاثة مباحث:

- المبحث الأول: مقاصد السنن الاجتماعية في بعدها العقدي. والتربوي
- المبحث الثاني: مقاصد السنن الاجتماعية في بعدها الاجتماعي والحضاري.
- المبحث الثالث: مقاصد السنن الاجتماعية في بعدها السياسي




المبحث الأول: مقاصد السنن الاجتماعية في بعدها العقدي والتربوي.

المطلب الأول: مقصد الوصول إلى معرفة الخالق تحقيق التوحيد

لا غرو أن السنن الإلهية - على تنوعها - التي أقرّها القرآن الكريم في سياقات متعددة من آياته تتوخى تحقيق مجموعة من المقاصد والغايات السامية، أساسها وأعلاها التعرف على خالق هذا الكون البديع، مما يحقق الإقرار له بالتوحيد في ذاته وصفاته وأفعاله، كما أنَّ دعوة القرآن إلى التأمل وإعمال الفكر والنظر؛ هي دعوة لاكتشاف عظمة الخالق، الدالة على وحدانيته ذاتا وصفات وأفعالا.

وكذلك فإنَّ " الهدف من بعثة النبي يقوم أساسا على توحيد الله تعالى، فالإيمان بالله سبحانه ربا واحدا لا شريك له، وبملائكته ورسله واليوم الآخر، هو روح الوجود وسنام العقيدة التي على مكوناتها تستقيم شؤون الكون كله والبشرية جزء منه، فالإيمان بوجود خالق لهذا الكون قضية ضرورية لا مساغ للعقل في إنكارها "[1].

يقول بديع الزمان النورسي:" فمن أمعن النظر، ودق البصر، في هذا العالم العلوي والسفلي وما احتوى من مشاهد بديعة وعجيبة لانكشفت له الحقيقة، ولكفاه الكتاب المنظور دون الارشاد إلى الكتاب المسطور، وإنما الكتاب المسطور يبقى موضحا لتعاليم هذا الدين في الحياة العملية، لكن مع ذلك ربنا الكريم لم يغفل الإشارة إلى هذا الجانب المهم، ليتقرر عند الإنسان أن خالق هذا الكون يستحيل أن يكون خالقا مثله مثلنا يعتريه ما يعرينا، فهذه الآيات وحدها كافية وداعية للوصول إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة؛ وَكُلَّمَا ازْدَادَتِ الْبَصَائِرُ فِي هذا الكون تَأَمُّلًا وَتَفْكِيرًا، زَادَهَا هِدَايَةً وَتَبْصِيرًا...

ألا ترى أَن يدا خُفْيَة تعْمل من وَرَاء الْأُمُور جَمِيعهَا أَولا ترى أَن مَا لَا قُوَّة لَهُ أصلا وَلَا يقوى على حمل نَفسه يحمل آلَاف الأرطال من الْحمل الثقيل أَولا تشاهد أَن مَا لَا إِدْرَاك لَهُ وَلَا شُعُور يقوم بأعمال فِي غَايَة الْحِكْمَة فَهَذِهِ الْأَشْيَاء إِذن لَا تعْمل مُسْتَقلَّة بِنَفسِهَا بل لَا بُد

(1) سلسلة أركان الإيمان. الإيمان بالله جل جلاله. الدكتور علي محمد الصلابي. الناشر: دار المعرفة. بيروت، لبنان. ط: 1. ص:44. - بتصرّف -.

أَن مولى عليما وصانعا قَدِيرًا يديرها من وَرَاء الْحجب إِذْ لَو كَانَت مُسْتَقلَّة بذاتها وأمرها بِيَدِهَا للَزِمَ أَن يكون كل شَيْء هُنَا صَاحب معْجزَة خارقة وَمَا هَذِه إِلَّا سفسطة لَا معنى لَهَا "[1].

ويقول أيضا:" تَأمل فِي بُسْتَان هَذِه الكائنات وَانْظُر إِلَى جنان هَذِه الأَرْض وأنعم النّظر فِي الْوَجْه الْجَمِيل لهَذِهِ السَّمَاء المتلألئة النُّجُوم تَرَ أَن للصانع الْجَلِيل جلّ جَلَاله ختما خَاصّا بِمن هُوَ صانع كل شَيْء على كل مَصْنُوع من مصنوعاته وعلامة خَاصَّة بِمن هُوَ خَالق كل شَيْء على كل مَخْلُوق من مخلوقاته "[2].

ويمكن القول أيضا بأن هذه السنن الإلهية قطعت الأعذار على الملحدين والمشككين في وجود خالق مدبر لهذا الكون، ومسير للأحداث وتعاقبها، وفق نظام شامل متصف بالحكمة المطلقة، ومن ذلك سننه سبحانه في المجتمعات والأمم، ولا شك أن تلك السنن الاجتماعية لم تصدر منه سبحانه وتعالى عبثا، بل لغايات ومقاصد، أهمها وأسماها مقصد الإقرار له سبحانه وتعالى بالتوحيد، واتصافه تعالى بصفات الكمال المطلق.

وعليه " فالسنن الإلهية تقوم على عقيدة توحيد الله تعالى بوصفه الدعامة الرئيسية والقطب الذي تنجذب إليه كل الموجودات وتستمد منه وجودها وبقاءها ووظيفتها "[3].

هذا ولقد نثر الحق سبحانه في الكون آيات عجيبة ولكل منثور في الكون حكمة، وهذه الآيات تلفتنا إلى صدق توحيد الله والعقيدة فيه.[4]

ويمكن أن نبسط هنا مجموعة من الآيات القرآنية الدالة على عظمة هذا الكون:

يقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ اِلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ وَاخْتِلَٰفِ اِليْلِ وَالنَّهارِ وَالْفُلْكِ اِلتِے تَجْرِے فِے اِلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ اُلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ اَللَّهُ مِنَ اَلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحْيا بِهِ اِلَارْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصْرِيفِ اِلرِّيَٰحِ وَالسَّحَابِ اِلْمُسَخَّرِ بَيْنَ اَلسَّمَآءِ وَالَارْضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوْمٖ يَعْقِلُونَ ﴾ [سورة البقرة آية 163].

---

(1) حقيقة التوحيد: بديع الزمان سعيد النورسي، الناشر: دار سوار للطباعة والنشر، ط: 2، 1988م، ص: 21.
(2) المصدر نفسه: ص: 54.
(3) علم السنن الالهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي. الدكتور رشيد كهوس، ص: 90.
(4) المصدر نفسه، ص:91.

يقول صاحب تفسير المنار:" هَذِهِ آيَةٌ قُرْآنِيَّةٌ تَشْرَحُ لَنَا بَعْضَ الْآيَاتِ الْكَوْنِيَّةِ الدَّالَّةِ عَلَى وَحْدَانِيَّةِ اللهِ تَعَالَى وَرَحْمَتِهِ الْوَاسِعَةِ، إِثْبَاتًا لِمَا وَرَدَ فِي الْآيَةِ قَبْلَهَا مِنْ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ لَهُ تَعَالَى، عَلَى طَرِيقَةِ الْقُرْآنِ فِي قَرْنِ الْمَسَائِلِ الِاعْتِقَادِيَّةِ بِدَلَائِلِهَا وَبَرَاهِينِهَا كَمَا أَلْمَعْنَا. وَهَذِهِ الْآيَاتُ أَجْنَاس مِنْهَا: خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، فَفِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ كَثِيرَةُ الْأَنْوَاعِ يُدْهِشُ الْمُتَأَمِّلِينَ بَعْضُ ظَوَاهِرِهَا، فَكَيْفَ حَالُ مَنِ اطَّلَعَ عَلَى مَا اكْتَشَفَ الْعُلَمَاءُ مِنْ عَجَائِبِهَا، الدَّالُّ عَلَى أَنَّ مَا لَمْ يَعْرِفُوهُ أَعْظَمُ مِمَّا عَرَفُوهُ مِنْهَا ".[1]

ويختم الله تعالى بالتذكير والحث على الاعتبار والإدراك لهذه الآيات، وأنها آيات يستوجب على كل إنسان أن يتدبرها ليعرف القدرة الالهية المبسوطة في هذا الكون.

فيؤكد في الختام أن هذا الادراك لا يحصل إلا لأولئك الذين ينظرون بقلوبهم ووصفهم بالعقلاء على صيغة الفعل المضارع التي تفيد التجدد والاستمرار﴿ لَأَيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ [سورة البقرة آية 163]

" فَإِنَّهُمْ هُمُ الَّذِينَ يَنْظُرُونَ فِي أَسْبَابِهَا، وَيُدْرِكُونَ حِكَمَهَا وَأَسْرَارَهَا، وَيُمَيِّزُونَ بَيْنَ مَنَافِعِهَا وَمَضَارِّهَا، وَيَسْتَدِلُّونَ بِمَا فِيهَا مِنَ الْإِتْقَانِ وَالْإِحْكَامِ، وَالسُّنَنِ الَّتِي قَامَ بِهَا النِّظَامُ، عَلَى قُدْرَةِ مُبْدِعِهَا وَحِكْمَتِهِ، وَفَضْلِهِ وَرَحْمَتِهِ، وَعَلَى اسْتِحْقَاقِهِ لِلْعِبَادَةِ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ بَرِيَّتِهِ، وَبِقَدْرِ ارْتِقَاءِ الْعَقْلِ فِي الْعِلْمِ وَالْعِرْفَانِ يَكْمُلُ التَّوْحِيدُ فِي الْإِيمَانِ، وَإِنَّمَا يُشْرِكُ بِاللهِ أَقَلُّ النَّاسِ عَقْلًا وَأَكْثَرُهُمْ جَهْلًا "[2].

ويذكر الله تعالى في موضع آخر آية الأنفس يقول تعالى: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [سورة الذاريات آية 21]

ولأنه لما كان أقرب الأشياء إلى الإنسان نفسه دعاه خالقه وبارئه ومصوره وفاطره من قطرة ماء إلى التبصر والتفكر في نفسه، فإذا تفكر الإنسان في نفسه استنارت له آيات الربوبية وسطعت له أنوار اليقين، واضمحلت عنه غمرات الشك والريب، وانقشعت عنه

---

(1) تفسير المنار، رشيد رضا، (02 / 47).
(2) المصدر نفسه، ص:52.

ظلمات الجهل، فإنه إذا نظر في نفسه وجد آثار التدبير في قائمات، وأدلة التوحيد على ربه ناطقات، شاهدة لمدبره، دالة عليه مرشدة إليه.[1]

فالتوحيد إذن هو مرتكز كل الدعوات الرسالية في التاريخ ومقصدها الكلي الأساس وهو قطب الرحى الذي تدور حوله حركة الكون كلها، وتقوم عليه الخلافة البشرية في الأرض، وأي خروج عن ثوابته وضوابطه يخل بمقتضيات الخلافة، ويعرض الوجود الإنساني لأخطار محققة في العاجل والآجل، كما جاء ذلك في القرآن الكريم، وعلى لسان النبي الأمين، ومؤكد في الخبرة البشرية على مر التاريخ...، ومن أراد التأكد من حقيقة عواقب الإخلال بثوابت التوحيد ومقتضياته فعليه أن يدرس حوادث الأمم المتقدمة وما نزل بهم.[2]

وهكذا نجد أن القرآن الكريم يدعو إلى التفكّر والتدبّر في السنن الإلهية؛ كونية كانت أم اجتماعية، ليزداد قلب المؤمن إيمانا بوجود خالقه، واتصافه بالتوحيد في صفاته وذاته وأفعاله، وأيضا ليسترشد غير المؤمن إلى الوصول والإقرار بوحدانية الباري جل ثناؤه، وبهذه تحقق تلك السنن أعلى المقاصد وأسماها.

(1) التبيان في أقسام القرآن ،: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان. ، ص: 190.

(2) علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، الدكتور رشيد كهوس، ص: 91.

المطلب الثاني: مقصد السعي لنيل الفوز الدنيوي والأخروي

فمن مقاصد السنن في جانبها المرتبط بالاعتقاد أيضا، جعل الدنيا طريقا ووسيلة للفوز بالآخرة؛ فلا تمييز بين العمل الدنيوي والأخروي؛ لأن " المنهج الرباني لا يضع فارقا بين " العمل للدنيا " و " العمل للآخرة "؛ ليست هناك أعمال تعمل من أجل الدنيا، وأعمال أخرى تعمل من أجل الآخرة، وإنما هي كلها أعمال من نوع واحد وإن اختلفت أشكالها لأنها كلها عبادة...وكلها للدنيا وكلها للآخرة في آن واحد "[1]. لذلك فالسعي إلى مرضاة الله عز وجل يكون بتسخير " هذه الدنيا العاجلة الفانية، للدار الآخرة وما فيها من سعادة كاملة باقية: وذلك طبيا لما قد أخبر الله عنه وأمر به "[2].

وأما المقصد الأساس من ذكر السنن الإلهية في القرآن الكريم هو ألاّ يمر الإنسان على آيات الله في الآفاق والأنفس والكون والحياة، وهو معرض عنها؛ بل عليه أن يُقبِل عليها إقبال الدارس، إما لتنتهي إلى قضية إيمانية تُثري حياته؛ وتعطيه حياة لا نهايةَ لها، وهي حياة الآخرة، أو تُسعِده وتسعد غيره، بأن يكتشف منها ما يفيد به البشرية في مسيرتها في الحياة.

قال الله تبارك وتعالى: ﴿وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتِيٰكَ أَللَّهُ أُلدَّارَ أَلَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ أَلدُّنْيٰاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ أَللَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ أِلْفَسَادَ فِے أِلَارْضِ إِنَّ أَللَّهَ لَا يُحِبُّ أُلْمُفْسِدِينَۖ﴾ [سورة القصص آية 77].

وفي هذا يتمثل اعتدال المنهج الإلهي القويم. المنهج الذي يعلق قلب واجد المال بالآخرة، ولا يُحرمه أن يأخذ بقسط من المتاع في هذه الحياة، بل يحضه على هذا ويكلفه إياه تكليفا، كي لا يتزهد الزهد الذي يهمل الحياة ويضعفها.

لقد خلق الله طيبات الحياة ليستمتع بها الناس وليعملوا في الأرض لتوفيرها وتحصيلها، فتنمو الحياة وتتجدد، وتتحقق خلافة الإنسان في هذه الأرض؛ ذلك على أن تكون وجهتهم في هذا المتاع هي الآخرة، فلا ينحرفون عن طريقها، ولا يشغلون بالمتاع عن تكاليفها. والمتاع

(1) الرسل والرسالات، عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح / دار النفائس، ط:2، 1405 هـ، ص: 202.
(2) السنن الإلهية من الوعي النظري الى التأسيس العملي، د. رشيد كهوس، ص: 87، - بتصرف -.

في هذه الحالة لون من ألوان الشكر للمنعم، وتقبل لعطاياه، وانتفاع بها. فهو طاعة من الطاعات يجزي عليها الله بالحسنى.[1]

فالدار الاخرة للذين خافوا ربهم في الدنيا، واتقوا عذابه بامتثال أوامره واجتناب نواهيه، هم يوم القيامة في ظلال الأشجار الوارفة وعيون الماء الجارية، وفواكه كثيرة مما تشتهيه أنفسهم يتنعمون. يقال لهم: كلوا أكلا لذيذًا، واشربوا شربًا هنيئًا؛ بسبب ما قدمتم في الدنيا من صالح الأعمال. إنا بمثل ذلك الجزاء العظيم نجزي أهل الإحسان في أعمالهم وطاعتهم لنا. هلاك وعذاب شديد يوم القيامة للمكذبين بيوم الجزاء والحساب وما فيه من النعيم والعذاب.

قال الله عز وجل: ﴿ إِنَّ ٱلدَّارَ ٱلَاخِرَةَ لَهِيَ ٱلْحَيَوَانُۖ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَۖ﴾ [سورة العنكبوت آية 64] ، وصفت بذلك لمصيرها آخِرةً لأولى كانت قبلها، كما تقول للرجل: "أنعمتُ عليك مرَّة بعد أخرى، فلم تشكر لي الأولى ولا الآخرة، وإنما صارت آخرة للأولى، لتقدُّم الأولى أمامها. فكذلك الدارُ الآخرة، سُمِّيت آخرةً لتقدُّم الدار الأولى أمامها، فصارت التاليةُ لها آخرةً. وقد يجوز أن تكون سُمِّيت آخرةً لتأخُّرها عن الخلق، كما سميت الدنيا " دنيا " لِدُنُوِّها من الخلق.[2]

وقد جعل الله عز وجل الدار الاخرة ونعيمها للذين لا يريدون تكبرا عن الحقّ في الأرض وتجبرا عنه ولا فسادا، لقوله جل وعلا: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلَاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوّاً فِے اِ۬لَارْضِ وَلَا فَسَاداًۖ وَالْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَۖ﴾ [سورة القصص آية 83] ، والإشارة في قوله:" **تِلْكَ** " إلى الجنة، أشار إليها بإشارة البعيد، لقصد التعظيم لها، والتفخيم لشأنها، وهي مبتدأ "**الدَّارُ الْآخِرَةُ** "صفة لها، وجملة " **نَجْعَلُهَا** " خبر المبتدأ، كأنه قال: تلك الجنة التي اسمعت خبرها، وبلغك شأنها نجعلها " **لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ** "؛ **أي**: ارتفاعًا وغلبة وتسلطًا على المؤمنين، كما أراد فرعون، كما قال تعالى في أول السور:" **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ** ".

---

(1) في ظلال القران، سيد قطب، (271/05).
(2) جامع البيان في تأويل القرآن، ابن جرير الطبري، (245/01).

وعن أنس بن مالك، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَ أَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلاَّ مَا قُدِّرَ لَهُ** "[1]، وقد أرشد رسول الله صلى الله عليه وسلم السائل إلى تركها بالزهد فيها ووعد على ذلك حب الله تعالى وهو رضاه عنه فإن حب الله تعالى لعباده رضاه عنهم، وأرشده إلى الزهد فيما في أيدي الناس إن أراد محبة الناس له، والمال حب الدنيا فإنه ليس في أيدي الناس شيء يتباغضون عليه ويتنافسون فيه إلا الدنيا.[2]

وإذا تأملنا الآية السالفة الذكر (الآية 83 من سورة القصص) نجد ترابطا عجيبا بين السعي لتحقيق الفوز الأخروي، والعمل الدنيوي وفق منهج الله؛ أي: باتباع أوامره واجتناب نواهيه، فتحقيق الغاية؛ وهي الفوز بالجنة، رهين بتحقيق شرط العمل وإخلاص العبادة لله تعالى في هذه الدنيا، وهنا تتجلى بوضوح مقصد جليل من مقاصد السنن الاجتماعية.

وهكذا " يحقق الانسان منهجا مستقيما وحياة متناسقة تمكنه من الارتقاء الروحي الدائم من خلال حياته الطبيعية المتعادلة التي لا حرمان فيها، ولا إهدار لمقومات الحياة الفطرية البسيطة "[3].

والخلاصة أن الإيمان باليوم الآخر الذي هو رُكن هامٌّ من أركان الاعتقاد، حيث قرنه الله تعالى في آيات كثيرة مع الإيمان به، يعتبر بمثابة الدافع والمحفِّز للعمل؛ فإن استقر في القلبِ فالإنسانُ بكل جوارحه يتجه إلى الأفعال التي تسير على ضوء منهاج الله لينال الإنسان الجزاء الأوفى، والنعيم المقيم، وبالتالي يستقيم حاله في الدنيا، لأنه لا يخرج عن المنهج الذي ارتضاه الله لعباده، وهذا مقصد مهم أيضا من مقاصد السنن الاجتماعية على مستوى الفرد خاصة.

---

(1) سنن الترمذي، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع، باب: ما جاء في صفة أواني الحوض، رقم الحديث 2465، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي -بيروت، (642/04).

(2) شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، لابن دقيق العيد، مؤسسة الريان، الطبعة: السادسة 1424 هـ - 2003 م. ص 105.

(3) في ظلال القران، سيد قطب (05 / 723).

المطلب الثالث: مقصد إدراك حقيقة الإعجاز القرآني وصدق الرسالة المحمدية

من مقاصد سنن الله تعالى في خلقه نجد أيضا مقصد إدراك حقيقة إعجاز القرآن الكريم وهذا الأمر فيه دلالة كذلك على صدق نبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وصدقه في البلاغ عن الله عز وجل، فهي تتضمن البشارة بنصر جند الرحمان على حزب الشيطان وهي سنة إلهية لا يمكن أن تتخلّف أبدا، وإن طال الزمن وتعاقبت الأمم والأجيال، وبهذا يتكامل مقصد إدراك حقيقة الإعجاز القرآني مع صدق الرسالة المحمدية.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَاتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ [سورة البقرة آية 22-23]. ؛ فقد " تحدى الله عز وجل العرب الذين نزل بلغتهم أن يأتوا بسورة تماثله في البلاغة والفصاحة، ومتانة التشريع الصالح لكل زمان ومكان، ومطابقته لمكتشفات العلوم المختلفة، وإخباره بالمغيبات في الماضي والمستقبل. فإذا شك إنسان في أن القرآن ليس من كلام الله فليأت بمثله، والقرآن كلام عربي من جنس ما يتكلم به العرب في خطبهم وأشعارهم وكلامهم العادي، وهم فرسان البلاغة والفصاحة، وأعلام البيان. وإذا عجزوا عن الإتيان بمثل سورة من القرآن، وهم عاجزون إلى الأبد، فليرجعوا إلى الحق، وليؤمنوا بمحمد وبما أنزل الله عليه من القرآن، وفي ذلك وقاية لهم من النار. قال الله تعالى مبيّنا إعجاز القرآن وإثبات رسالة النّبي محمد صلى الله عليه وسلم "[1].

والقرآن الكريم في ثناياه خلاصة وعصارة السنن التي تنظم العلاقة بين المجتمعات والأمم، فمرة يذكرها صراحة، وأخرى إشارة ودلالة.. وهكذا يرى في قصص الأولين أحسن تمثيل لنهوض الأمم والحضارات وسقوطها، وربط الأسباب بالمسببات، والمقدمات بالنتائج، وكل ذلك له مقاصد وغايات، نلمسها عندما ندرك حقيقة أن هذا القرآن معجز، وأنه من عند الله تعالى، ونزداد يقينا بصدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

---

(1) التفسير الوسيط، لوهبة الزحيلي، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى - 1422 هـ ، (17/01).

قال الباري جل جلاله في آخر سورة يوسف: ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي الْأَلْبَٰبِ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَىٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدىً وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُومِنُونَ﴾ [سورة يوسف آية 111].

فالقرآن الكريم إذاً " يعدّ المصدر الأول للكشف عن السنن الإلهية والاجتماعية، حيث أنه هدى ونبراسا للإنسان، ودليلا للمسلم في حياته، وطريقا له للآخرة حيث السعادة الأبدية. وهذه السنن وبمختلف مجالاتها، منها ما كشف عنه سبحانه وتعالى في كتابه، وعلى لسان نبيه صلى الله عليه وسلم، ومنها ما دعا الناس إلى تلمسها والبحث عنها في الآفاق وفي أنفسهم، ثم النظر فيها وتدبرها والتفكر فيها "[1].

" القرآن الكريم هداية ربانية لجميع الناس، فمن مقاصده تربية الانسان وإصلاح أفراد البشر وجماعاتهم وأقوامهم، وإدخالهم في طور الرشد، وتحقيق اخوتهم الإنسانية ووحدتهم، وترقية عقولهم، وتزكية أنفسهم، منها ما يكفي بيانه لهم في الكتاب مرة أو مرتين أو مرارا قليلة، ومنها ما لا تحصل الغاية منه إلا بتكراره مرارا كثيرة، لأجل أن يجتث أعماق الأنفس كل ما كان فيها من آثار الوراثة والتقاليد والعادات القبيحة الضارة، ويغرس في مكانها أضدادها، ويتعاهد هذا الغرس بما ينميه حتى يؤتي أكله، ويبدو صلاحه، ويينع ثمره، ومنها يجب أن يبدأ بها كاملة، ومنها ما لا يمكن كماله إلا بالتدريج، ومنها ما لا يمكن وجوده إلا في المستقبل، فيوضع له بعض القواعد العامة، ومنها ما يكفي في الفحوى والكناية "[2].

إن العبرة من القصص القرآني لا تكاد تنقطع أو تنتهي بهلاك الأمم الذين سجل القرآن الكريم قصتهم، وستبقى هذه السنن ارفًدا من روافد الفهم والفقه، والا فما فائدة هذا القصص الخالد إذا لم ينشئ عقلا مستنبطا للقوانين والسنن، التي تحكم التجمع الإنساني، وتتحكم بقيام وسقوط الحضارات، هل هي حكايات لتجزئة الوقت أسقطها الزمن وطواها

(1) علم السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، رشيد كهوس، ص 5
(2) الوحي المحمدي ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدينة الى الإسلام دين الأخوة الإنسانية والسلام، للسيد محمد رشيد رضا، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، الطبعة الثانية 1352 هـ، ص 191.

التاريخ؟ كلا ؟..فمراد الله تعالى أعلى وأعز وأكرم من أن يكون ذلك القصص منحصًرا في حكايا للترف الفكري والتفكه العلمي.[1]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية:" ومن هذا الباب صارت قصص المتقدمين عبرة لنا ولولا القياس واطراد فعله وسنته لم يصح الاعتبار بها، والاعتبار إنما يكون إذا كان حكم الشيء حكم نظيره، كالأمثال المضروبة في القرآن، وهي كثير..."[2].

ولعل من أغزر موارد السنن الإلهية: القصص القرآني؛ فقد "خصص الكثير من سور القرآن الكريم للحديث عن قصص الغابرين، لينبهنا ويلفت أنظارنا إلى ما آلت إليه تلك الأمم من تغير أحوالها إيجابيا أو سلبا حين اختارت لنفسها طريقا معينا، ولينبهنا كذلك إلى أن المجتمعات البشرية محكومة بنوع من السنن والنواميس المطردة الثابتة العامة، التي تضبط حركتها وتطورها، وتحدد مصيرها في النهاية "[3].

كما ضرب لنا الأمثال التي وردت في سياق قصة، أو جاءت منفردة، مع الإلحاح على الاتعاظ بها وأخذ العبرة منها [4].

ولم يكن هذا العرض لمجرد المتعة والترف الفكري والترفيه، بل إن هذا التوجيه القرآني للفكر البشري[5] لكي يدرك أن كل ما يقع ليس صدفة؛ بل هناك نتائج مرتبطة بأسبابها، وهناك سنن تحكم التجمع البشري وسقوط الحضارات وقيامها، وهذا الطرح؛ شكل أعظم

(1) أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق، للدكتور محمد كنعان، كتاب الأمة، ط 1، المحرم 1411 هـ، مقدمة عمر عبيد حسنة، ص 13.

(2) رسالة في لفظ السنة في القرآن لابن تيمية ضمن جامع الرسائل (المجموعة 1) ت: د محمد رشاد سالم ط 2 1405هـ/ 1984م، مطبعة المدني القاهرة، ص 55.

(3) السنن الإلهية من الوعي النظري الى التأسيس العملي، رشيد كهوس، ص 30.

(4) السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول وضوابط، مجدي محمد عاشور، دار السلام - القاهرة، ط1، 1413 هـ / 1993م، ص 61.

(5) تأصيل علم السنن الإلهية، راشد شهوان، ص 72. - بتصرف-.

النقلات المعرفية للعقل البشري في تاريخه، وقد كان القرآن ولا يزال للمسلمين، وسيظل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، هو مفتاح الخروج من الأزمات [1].

يقول الشيخ الغزالي رحمه الله تعالى:" هذا القرآن يكلم الرجال ليعيد صياغتهم، ويكلم الأحياء ليحقق استجابتهم، ويكلم العقلاء ليوجه وعيهم، فيجعل منهم أمة تحمل رسالتها... وفعلا حملت الأمة رسالتها لأنها فهمت المقصود من إرسال المعجزة الأخيرة، وأدركت أبعادها، وتدبرت مقاصدها، معجزة إنسانية تتصل بإحياء المواهب الإنسانية، وتفجير الطاقة البشرية لهذا الخلق، وإعادة بناء وتشكيل العقل الإنساني"[2] وقال أيضا: "موضوع القرآن هو الانسان، ومحل آيات الله هو الكون، ولابد للإنسان من التدبر في القرآن، والتعرف على سنن الكون وقوانينه التي لا يتحقق بدون إدراكها تعمير الأرض..."[3]

ولقد أجمل القرآن الكلام عن الأمم، وعن السنن الإلهية، وعن آياته في السماوات والأرض وفي الآفاق والأنفس، وهو إجمال صادر عمّن أحاط بكل شيء علما، وأمرنا بالنظر والتفكّر والسير في الأرض لنفهم إجماله بالتفصيل الذي يزيدنا ارتقاء وكمالا... ولو اكتفينا من علم الكون بنظرة في ظاهره، لكنّا كمن يعتبر الكتاب بلون جلده، لا بما حواه من علم وحكمة "[4].

إن معجزة القرآن تتجلى أساسا في آياته التي لا تتبدل ولا تتغير، فإمعان النظر فيها واستحضارها من أعظم أسباب حياة القلبِ وإيمانِه وإجلالِهِ للخالقِ المدبّرِ-سبحانه-ففيه تلوحُ الحكمةُ ظاهرةٌ في أمرِ تدبيرِ الكونِ ونظامِه، وأنَّه جارٍ على تلك السننِ المحْكمةِ التي لا تتغِّيرُ ولا تتبَّدلُ، فأحداثُ التاريخ ِتعيدُ نفسَها وإنْ تغيرَّ شيءٌ من صورها وملامحها، فقراءتها واستقراؤها ممّا يسقي نَبْتَ المعرفةِ ويحُيي نورَ البصيرةِ، ويقوّي روحَ اليقينِ في وعد اللهِ ووعيدِه وقدرتِه وانتقامِه، فلا بدَّ منْ ربطِ كلّ ما يستجدُّ منْ حدثٍ له تعلقٌ بتلك السُّنِن بسابقِه،

(1) عالمية الإسلام، أنور الجندي، دار المعارف - القاهرة، سلسلة اقرأ - العدد: 426، ص 124.
(2) كيف نتعامل مع القرآن، الشيخ محمد الغزالي، ص 47.
(3) المصدر نفسه ص:47.
(4) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ، (206/01).

والحاقِ بعضِها ببعضٍ؛ لتكون سلسلةً متّصلةً مترابطةً، تَرسُم منهاجًا واضحًا - حال التعامل مع المستجدات - وتعطي تفاؤلًا وأملًا في استشراف المستقبل وما عسى أن يبذل من خلاله.(1)

وبخصوص صدق الرسالة المحمدية " فإن نزول القرآن على سيدنا محمد بالسنن الإلهية في النفس والمجتمع والافاق واخبار الأمم السابقة والحوادث الماضية أكبر دليل على صدق نبوته ورسالته، قال الله عز وجل: ﴿ تِلْكَ مِنَ اَنۢبَآءِ اِ۬لْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَۖ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَاۖ فَاصْبِرْۖ اِنَّ اَ۬لْعَٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَۖ ﴾ [سورة هود آية 49] ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم كان أميا لم يختلف إلى مؤدب ولا معلم، ولا فارق وطنه مدة يمكنه الانقطاع فيها إلى عالم يأخذ ذلك عنه، فإذا علم بها وتدبر العاقل من قومه ذلك علم بوحي من الله سبحانه وتعالى، فآمن به وصدقه وكان ذلك من المعجزات الدالة على صدق نبوته، وقد ينكر ويجحد حسدا وعنادا ".(2)

وكانت رسالته -صلى الله عليه وسلم- رحمة للعالمين، أنجدتهم من متاهات الحيرة والغواية، إلى منجاة الطمأنينة والهداية، قال تعال: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةٗ لِّلْعَٰلَمِينَۖ ﴾ [سورة الأنبياء آية 106] ، ولم تكن هذه الرحمة المهداة لقوم دون قوم، أو لجنس دون آخَر، أو لزمان مستقبل ينقطع بمجيء نبي آخر، وإنما كانت رسالة محمد -صلى الله عليه وسلم- للعالمين أجمعين، وخاتمة لرسالات السماء كلها إلى آخر الزمان، قال -سبحانه: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيراٗ وَنَذِيراٗ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ اَ۬لنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَۖ ﴾ [سورة سبأ آية 28]...(3)

وتجدر الإشارة أيضا إلى أن " الله تعالى وثق العهد الفطري بجعل العقول بعد الرشد قابلة لإدراك السنن الإلهية في الخلق، ووثق العهد الديني بما أيد به الأنبياء من الآيات البينات والأحكام المحكمات، وقد وثق العهد الأول بالعهد الثاني أيضا، فمن أنكر بعثة الرسل ولم

(1) السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول وضوابط، مجدي محمد عاشور، ص: 94 - بتصرف -.

(2) - الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التأريخ، محمد السخاوي، مؤسسة الرسالة، ط: 1، 1408 م / 1986 هـ، ص 36.

(3) - تفسير المنار، محمد رشيد رضا (201/01). - بتصرّف -.

يهتد بهديهم فهو ناقض لعهد الله فاسق عن سننه في تقويم البنية البشرية وإنمائها، وإبلاغ قواها وملكاتها حد الكمال الإنساني الممكن لها "[1].

وخلاصة الكلام إن دراسة السنن الاجتماعية المبثوثة في القرآن الكريم تحقق للدارس مقصدا مهما وهو إدراك حقيقة كون هذا الكتاب المقدس معجز في لغته وفي تشريعاته وفي أخباره عن الأمم السالفة وعما ستؤول إليه الأحداث والوقائع في المستقبل، إضافة إلى التأكيد على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم باعتبار المبلغ لهذا القرآن الكريم، فهو الواسطة بين الحق والخلق.

(1) المصدر نفسه، (203/01).

المطلب الرابع: مقصد تزكية النفس البشرية وتربيتها

من مقاصد السنن الاجتماعية في حياة الفرد والمجتمع أيضا؛ مقصد التربية والتربية على الأخلاق النبيلة والقيم الفاضلة، فإن " الناظر في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة يجد نصوص الوحي كلها تدعو إلى تزكية وتربية الانسان، فالقرآن الكريم كتاب تربية وتعليم لا كتاب تعليم فقط، فلا يكفي أن يذكر فيه مسألة مرة واحدة واضحة تامة كالمعهود في متون الفنون وكتب القوانين، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله في موضوع البعثة المحمدية ﴿ يُسَبِّحُ لِلهِ مَا فِي اِلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي اِلْاَرْضِ اِلْمَلِكِ اِلْقُدُّوسِ اِلْعَزِيزِ اِلْحَكِيمِۖ هُوَ اَلذِے بَعَثَ فِي اِلْاُمِّيِّـۧنَ رَسُولاٗ مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمُۥٓ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ اُلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِے ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [سورة الجمعة آية 1-2]، فآياته المتلوة هي سور القرآن، المرشدة إلى سننه في الاكوان، والتزكية هي التربية بالعمل وحسن الاسوة، والكتاب هو الكتابة التي تخرج العرب من أميتهم، والحكمة هي العلوم النافعة الباعثة على الاعمال الصالحة، وما يسمى في عرف شعوب الحضارة بالفلسفة، فجميع مقاصد القرآن وبيان السنة له تدور على هذه الأقطاب الثلاثة ".[1]

فالتربية والتزكية هما أساس المقاصد التربوية للسنن الإلهية، ويترجمان في الواقع على شكل أخلاق فاضلة، والأخلاق " ليست - كما يظن البعض - شيئا ثانويا في هذا الدين، وليست محصورة في نطاق معين من نطاقات السلوك البشري، إنما هي الترجمة العملية للاعتقاد الصحيح، لأن الإيمان ليس مشاعر مكنونة في داخل الضمير فحسب؛ إنما هو عمل سلوكي ظاهر كذلك "[2].

فمقصد السنن الإلهية الأخلاقي المتمثل في التزكية والتربية يهدف " إلى إيجاد مجتمعات نظيفة خالية من مظاهر التلوث، أيا كان هذا التلوث، أخلاقيا أم سياسيا أم اقتصاديا... فإذا ما سعت المجتمعات إلى ذلك. فإن الله يرفع من شأنها ويعليها، وإذا ما انتكست تلك

(1) الوحي المحمدي، محمد رشيد رضا، ص: 192.
(2) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دار المعرفة، ط: 7، السنة: 1429هـ-2008. ، ص: 114.- بتصرّف -.

المجتمعات في حمأة التلوث فإن ذلك يقودها إلى التخلف والانحدار الحضاري، والعذاب الإلهي ‹›[1].

فالحكمة من بيان هذه السنن الإلهية والحث على اكتشافها واستنباط مقاصدها ثم تسخيرها؛ هدايةُ الإنسانية إلى صلاحها، وإثارة الخير في نفوسها؛ ولأجل تهذيبها وإصلاح أخلاقها وأمرها بعث الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلّم، يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة الجمعة آية 2]

قال سيد قطب في قوله سبحانه : ﴿ وَيُزَكِّيهِمْ ﴾ " وإنها لتزكية وإنه لتطهير ذلك الذي كان يأخذهم به الرسول صلى الله عليه وسلم تطهير للضمير والشعور، وتطهير للعمل والسلوك، وتطهير للحياة الزوجية، وتطهير للحياة الاجتماعية. تطهير ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح. وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني. ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال.. إنها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع. تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه، ويتعامل مع الملأ الأعلى، ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العلوي الكريم "[2].

وغاية المرام في هذا المقام: إن صلاح المجتمعات والأمم والحضارات متوقف على صلاح الأفراد، وذلك بالتنشئة على الأخلاق الفاضلة، وتربية النفوس وتزكيتها، ولن يتحقق هذا الصلاح إلا بالسير على أنوار السنن الإلهية؛ ويكون ذلك بفهم مقاصدها ومراميها.

(1) من سنن القرآن المؤسس للنهوض الحضاري، عبدالمجيد الغيلي، ص: 113.
(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، (356/06).

المبحث الثاني: مقاصد السنن الاجتماعية في بعدها الاجتماعي والحضاري.

المطلب الأول: مقصد تحقيق مبدأ الاستخلاف والعمران من خلال حتمية التدافع

لا ريب أن القرآن الكريم اهتم بالحديث عن السنن الاجتماعية في مواطن عديدة من آياته، وقلّما نجد سورة من السور لم يرد فيها ذكر لبعض السنن الاجتماعية إما بدلالة المنطوق أو بدلالة المفهوم، كما أبرز القرآن هذه السنن بصورة تدعو المسلم المتدبر لكتاب الله عز وجل والمتأمل لمعانيه إلى البحث عن أسرارها، وإدراكها بوجه يؤدّي إلى حسن الاستفادة منها في أداء طاعة الله تعالى، وفي تحمل مسؤولياته للقيام بعمارة الأرض بموجب نظرية الاستخلاف، خاصة في سياق الصراع والتدافع الحاصل بين أجناس البشر، وما كان هذا التأكيد على هذه السنن وفوائدها إلا لكونها حوت مقاصد جليلة، تعود أهمية إدراكها على حياة الفرد والمجتمع، ويتحقق بها الاستخلاف المنشود.

فالسنن الاجتماعية؛ هي المنظومة السننية التي تحكم صيرورة العمران البشري، وتؤطر حركة الحياة وسير المجتمعات وتحقق الاستخلاف الإنساني.

وتجدر الإشارة كذلك إلى أن تحقيق الاستخلاف في الأرض يأتي بعد حركة التدافع التي تفرضها طبيعة الصراع البشري، وهي قضية حتمية.

وعند تتبع استعمالات مصطلح " التدافع " في الفكر الإسلامي نجد أن المفكرين وعلماء الإسلام يوظفونه في سياق اجتماعي، لا يخرج عن الدائرة القرآنية أو الاستعمال القرآني، وهذه بعض من تعريفاتهم له:

فقد عرفه عمر عبيد حسنة بأنه:" عملية تفاعل إنساني تقتضيها طبيعة العمران والاجتماع البشري، وهو سنة ربانية ثابتة مستمرة في العباد؛ حفظا لاستقامة حال العيش، واعتدالا لميزان الحياة، " فالمدافعة بين الخير والشر هي سنة الحياة وسبيل النمو والارتقاء، وأن الشر من لوازم الخير، وأن الفعل التاريخي وامتداد الحياة هو ثمرة للضرب بين الحق والباطل، قال سبحانه: ﴿ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا

يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ ﴾ [سورة الرعد: الآية 19]، وأن هذه المدافعة هي من رحمة الله بعباده، والتمكين لإظهار الحق واستمراه، وسبيل من سبل الحيلولة دون الفساد واستمرار الإفساد "[1].

وعرفه محمد عمارة بأنه عبارة عن:" حراك واستباق يعدل الخلل الفاحش بين الفرقاء المختلفين، ليعيد العلاقة بينهم إلى مستوى التوازن الوسطي العادل، وبذلك ينتفي سكوت الموت بين الفرقاء المتعددين، وتنجو التعددية من موات الصراع الذي يصرع به طرف غيره من الأطراف "[2].

وقال في موضع آخر أنه " حراك اجتماعي وثقافي وحضاري، وتنافس وتسابق بين الحضارات يعدل المواقف الظالمة، والممارسات الجائرة، والعلاقات المنحرفة دون صراع يصرع الأطراف الأخرى فيلغي التعددية، وإنها بالحراك والتسابق الذي يعيد العلاقات المختلة إلى درجة التوازن والعدل في العلاقات بين الفرقاء "[3] ، أي: أن التدافع لا يريد صرع ولا إزهاق الآخر، وليس كما قال بذلك يوسف كمال، بأن " المقصود بالتدافع إزهاق نهائي للباطل لا يصلح معه أي لقاء، ولا تتحقق به وحدة بين الأضداد، ويشتد الحق على الباطل ليقضي على كل انحراف عن سنة الله "[4] ، فالأمر هنا لا يقتضي القضاء والفناء، وإنما يقتضي التعديل والتحريك من موقع إلى آخر، فالتدافع إنما يروم التحجيم من الشر وتوسيع دائرة الخير والصلاح، فإذا كان كل انحراف عن سنة الله عز وجل وهو في حقيقته سنة من سنن الله أن يكون هناك من هو خارج عن أمر الله يوجب القضاء عليه، فإن هذا يخالف سننه الكونية، إن المطلوب اليوم في ظل هذا التنوع الحضاري أن تستوعب الأمم والشعوب أن أمر الصراع والمصارعة يحتم الخسارة للطرفين معا، إذ الأمر والموقف صعب يتطلب تكاثف الجهود ومحاولة الخروج من هذا المأزق المأزوم الذي تعيشه الإنسانية اليوم.

(1) على طريق الشهود، عمر عبيد حسنة، ط المكتب الإسلامي، بيروت، السنة: 1422ه، ص: 167.
(2) في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولة - القاهرة، ط: 2، السنة: 1427هـ-2007م، ص: 156-157.
(3) الحضارات العالمية تدافع أم صراع، محمد عمارة، سلسلة في التنوير الإسلامي 24، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: 1- دجنبر 1998 م، ص: 18.
(4) فلسفة التاريخ، يوسف كمال، مجلة المسلم المعاصر، العدد الثالث، رجب 1395ھ يوليوز 1975م، ص: 37.

ومن ثمة فكلمة " التدافع " كما يقول عبد الحليم عويس ليست من نوع الصراع ولا سيما بمحتواه الفلسفي الجدلي، فإن التدافع ليس إلا قمة الاستثارة ليبقى في النهاية ما ينفع الناس "[1].

2 - سنة التدافع في القرآن الكريم:

إن المتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن لفظ " الدفع " بمشتقاته ورد في آيات متعددة، وفي مواضيع متعددة وبمعان عديدة؛ كالصراع بين الحق والباطل، وبين المؤمنين والكافرين، وبين الخير والشر، وهذه الآيات هي:

1 - قوله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا دِفَٰعُ أُللَّهِ اِلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ اِلَارْضُ وَلَٰكِنَّ أَللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَي أَلْعَٰلَمِينَۖ﴾ [سورة البقرة: الآية 249].

أي؛" لولا أن الله تعالى يدفع أهل الباطل بأهل الحق، ويدفع الفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها، لغلب أهل الباطل والإفساد في الأرض وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم، حتى يكون لهم السلطان وحدهم، فتفسد الأرض بفسادهم، فكان من فضل الله على العالمين وإحسانه إلى الناس أجمعين أن أذن لأهل دينه الحق المصلحين في الأرض بقتال المفسدين فيها من الكافرين والبغاة المعتدين، فأهل الحق حرب لأهل الباطل في كل زمان، والله ناصرهم ما نصروا الحق وأرادوا الإصلاح في الأرض "[2].

فهذه الآية الكريمة تبين لنا حكمة الله عز وجل في سنة التدافع إذ لولا وجودها لسيطر أهل الباطل على الأرض وفسدت الأرض، ولكن من رحمته عز وجل أن أذن للناس بالتدافع.

2 - قوله سبحانه: ﴿ اُذِنَ لِلذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۖ وَإِنَّ أَللَّهَ عَلَيٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌۖ اِلذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ اِلَّآ أَنْ يَّقُولُواْ رَبُّنَا أَللَّهُۖ وَلَوْلَا دِفَٰعُ أُللَّهِ اِلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اَسْمُ أُللَّهِ كَثِيراًۖ وَلَيَنصُرَنَّ أَللَّهُ مَنْ يَّنصُرُهُۥٓۖ إِنَّ أَللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌۖ ﴾ [سورة الحج: الآية 37-38].

(1) تفسير التاريخ، علم إسلامي- نحو نظرية إسلامية في تفسير التاريخ، عبد الحليم عويس، ص: 221.
(2) تفسير المنار، محمد رشيد رضا،390/2.

" إن أماكن العبادة كلها معرضة للهدم، على قداستها وتخصيصها لعبادة الله لا يشفع لها في نظر الباطل أن اسم الله يذكر فيها، ولا يحميها إلا دفع الناس بعضهم ببعض، أي دفع حماة العقيدة لأعدائها الذين ينتهكون حرمتها، ويعتدون على أهلها، فالباطل متبجح لا يكف ولا يقف عن العدوان إلا أن يدفع بمثل القوة التي يصول بها ويجول ولا يكفي الحق أنه ليقف عدوان الباطل عليه، بل لابد من القوة التي تحميه وتدافع عنه، وهي قاعدة كلية لا تتبدل مادام الإنسان هو الإنسان "[1].

وتدل سنة التدافع على أن هذه السنة من نعم الله تعالى وفضله على عباده، مع أن في ثناياها القتل والموت، وهذا يؤكد قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ﴾ [سورة البقرة: الآية 214].

كما تدل على إظهار الحكمة من هذه السنة وهي إظهار الحق والصلاح في الأرض وإبعاد الباطل والفساد، فهذا هو المقصد الأعظم للحياة.

وفي هذه السنة حث الأمة على الأخذ بأسباب القوة في كل زمان وكان تحقيقا لسنة التدافع.

3 - التدافع يكشف عن طبيعة المعركة بين حزب الرحمن وحزب الشيطان:

وجدير بالذكر أن التدافع بين الحق والباطل سنة عامة؛ إذ هي المحرك الرئيس لأحداث التاريخ، قررها ربنا سبحانه وتعالى منذ فجر الوجود البشري على سطح هذا الكوكب، فقال عندما هبط آدم وحواء إليه قوله : ﴿ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ [سورة البقرة: الآية 35].

وهذا الصراع مستمر وسيتواصل إلى أن يرث الله عز وجل الأرض ومن عليها، كما في قوله تعالى : ﴿وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا﴾ [سورة البقرة: الآية 215].

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، 2425/4.

وهذا التقرير من العلي الخبير يكشف عن طبيعة المعركة بين الحق والباطل، وعلى فتنة المسلمين عن دينهم بوصفها الهدف الثابت المستمر لأعدائهم، وهو الهدف الذي لا يتغير لأعداء الإسلام من وثنيين ويهود ونصارى وملاحدة في كل زمان وفي كل أرض[1].

إن وجود الإسلام في الأرض هو بحد ذاته غيظ ورعب لأعدائه؛ فهو من القوة والمتانة بحيث يخشاه كل مبطل، ويرهبه كل باغ، ويكرهه كل مفسد، ومن ثم لا يطيقه المبطلون والظالمون والمفسدون؛ ذلك أنهم لا يأمنون على باطلهم وبغيهم وفسادهم وفي الأرض جماعة مسلمة تؤمن بهذا الدين وتتبع هذا المنهج وتعيش بهذا النظام، ومن ثم يرصدون لأهله ويتربصون بهم ليفتنوهم عنه ويردوهم كفارا في صورة من صور الكفر الكثيرة [2].

وتتنوع وسائل قتال هؤلاء الأعداء للمسلمين وأدواتهم، ولكن السنة تظل ثابتة: أن يردوا المسلمين الصادقين عن دينهم إن استطاعوا، وكلما انكسر في يدهم سلاح انتضوا سلاح غيره، وكلما كلت في أيديهم أداة شحذوا أداة غيرها دون كلل أو ملل. والتوجيه الصادق من العليم الخبير قائم يحذر الجماعة المسلمة من الاستسلام، وينبهها إلى الخطر، ويدعوها إلى الصبر على الكيد، والصبر على الحرب، ومدافعة الأعداء بكل وسيلة ممكنة، وإلا فهي خسارة الدنيا والآخرة [3].

وهكذا كان، وهكذا يكون وسيكون؛ فلا يزال الكفار يقاتلون المسلمين ويواجهونهم بأساليب متنوعة ليردوهم عن دينهم إن استطاعوا، ولم ولن يستطيعوا بإذن الله تعالى؛ لأن قوله جل ثناؤه: ﴿إِنِ ٱسْتَطَٰعُواْ ﴾يفيد ضعف استطاعتهم وعدم الثقة بها، لأن من عرف الإسلام معرفة صحيحة وهو الحق الصريح لا يرجع عنه إلى الكفر وهو الباطل المحقق[4].

وهذه المعركة بين أهل الحق وأهل الباطل تتلون بألوان شتى، وتتخذ أساليب ووسائل متنوعة، وإيحاءات خادعة، كما في قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُوراً﴾ [سورة الأنعام: الآية 113].

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، 227/1. بتصرف.
(2) في ظلال القرآن، سيد قطب، 228/1.
(3) في ظلال القرآن، سيد قطب، 228/1.
(4) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 253/2

فسنة الله في خلقه مضت بأن يكون الشرير المتمرد على الحق، العاتي عن المعروف، عدوا للأنبياء عليهم السلام ومن سار على دربهم من ورثتهم وناشري هدايتهم، وهذا شأن كل ضدين: يدعو أحدهم إلى خلاف ما عليه الآخر؛ بسبب الاختلاف في المنطلقات والوسائل والأهداف والغايات، وبسبب التنازع في النظرة إلى الإنسان والكون والحياة.

ونسبة العداوة إلى أحدهما تأتي من كون أحدهما خيرا محقا والآخر شريرا مبطلا؛ لأنه هو الذي سعى إلى إيذاء مخالفه بكل وسيلة يستطيعها وإن كان يعلم أنه يريد له الخير. وسبب هذا التصدي يرجع إلى حب الشهوة والزعامة بالباطل، والخوف على الترف والنعيم، ولذلك فهو من فعل البؤساء المستكبرين والعتاة المتمردين الذين نصبوا أنفسهم لعداوة الأنبياء والدعاة وإيذائهم، وصد الناس عنهم بأساليب الدعاية المموهة الخفية التي لا يفطن لباطلها كل أحد من الناس[1].

4 - تنازع البقاء بين الأضداد وحتمية التدافع لمصلحة البشرية:

إن سنة عداوة الأشرار للأخيار هي ما يعبر عنه علماء الاجتماع بقانون: " تنازع البقاء بين المتقابلات أو الأضداد " التي تفضي بالتدافع والجهاد والتمحيص إلى ما يسمونه قانون: " الانتخاب الطبيعي "؛ أي انتصار الأقوى وبقاء الأصلح، وهو ما يطلق عليه القرآن الكريم: " الحق " و " النافع " كما في قوله تعالى : ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اُللَّهُ اُلْحَقَّ وَالْبَٰطِلَۖ فَأَمَّا اَلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءٗ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ اُلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي اِلْاَرْضِۖ﴾ [سورة الرعد: الآية 19][2].

ولكن للأسف فإن أكثر المسلمين في هذا العصر يجهلون هذه السنة الحكيمة، ويشتبه عليهم فهمها في تطبيقها على أنفسهم، ظانين أن مجرد تسميتهم مسلمين كاف لينزل عليهم نصر الله، وإن خالفوا سننه بظلمهم وفسقهم وكسلهم وفرقتهم، وترك مصدر القوة من المعرفة والإعداد والتخطيط والإبداع والنظام والوحدة، وغير ذلك من العوامل التي تحقق كمال الاستعداد لتوظيف سنة التدافع أو " تنازع البقاء " على أكمل وجه.

وفي ضوء العداوة المكينة بين المؤمنين ومن خالفهم من ملل الكفر، فالتدافع بين الحق والباطل، أي بين أصحابهما، أمر حتمي لابد منه؛ لأنهما ضدان، والضدان لا يجتمعان. وإذ

(1) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 6/8 بتصرف.
(2) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، 6/8.

يستلزم تطبيق أحدهما مزاحمة الآخر وطرده وإزالته، أو على الأقل إضعافه ومنعه من أن يكون له تأثير في واقع الحياة فلا يتصور وفق هذه السنة أن يعيش الحق والباطل في سلام ووئام دون غلبة أحدهما على الآخر، إلا لعلة؛ كضعف أصحابهما، أو جهلهم بمعاني الحق والباطل ومقتضيات ولوازم هذه المعاني، أو ضعف تأثيرها في نفوسهم[1].

والحقيقة التي ينبغي إيضاحها هي أن التدافع الذي يعنيه القرآن الكريم من خلال هذه السنة هو الذي يكون لخير وصالح البشرية، وبه يتحقق السلام العالمي في أبهى صوره، بتحقيق العبودية لله وحده في الأرض، وإزالة كل طاغوت يعبد من دون الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ﴾ [سورة الأنفال: الآية 39].

فالبشرية بدون العبودية لله عز وجل لا تستطيع أن تسلك قاعدة عليها من الحق؛ لأن لكل معبود من الشركاء قاعدته الخاصة وسبيله المختلف، ولا سبيل أبدا لتوحيد هذه القواعد إلا بالتخلص من الشركاء جميعا، والاتجاه المنقاد المستسلم له تعالى وحده لا شريك له[2].

وبين فوضى الأرباب والطواغيت والمعبودات ذات الأسماء والشعارات والصور المتباينة يرسم القرآن الكريم للمؤمن الموحد طريقا واضحا أبلجا، لا زلل فيه ولا عثار، محذرا إياه بأن اختياره لغير هذا الطريق، أو تردده في الإمساك به معناه الكارثة المحققة والخسارة الكبرى قوله: ﴿ قُلَ اَفَغَيْرَ اَللَّهِ تَامُرُونِيَ أَعْبُدُ أَيُّهَا اَلْجَٰهِلُونَ ۝ وَلَقَدُ اُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَي اَلذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنَ اَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ اَلْخَٰسِرِينَ ۝ بَلِ اِللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ اَلشَّٰكِرِينَ ۝ ﴾ [سورة الزمر: الآية 61-63].

كما بين القرآن الكريم أن عاقبة التدافع تكون دائما للمؤمنين، مهما طال الطريق وعصف بهم طغيان الكافرين قوله تعالى:: ﴿ وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَي اَلذِينَ اَسْتُضْعِفُواْ فِے اِلَارْضِ وَنَجْعَلَهُمُۥٓ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ اُلْوَٰرِثِينَ﴾ [سورة القصص: الآية 4]، وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِے اِلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ اِلذِّكْرِ أَنَّ اَلَارْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ اَلصَّٰلِحُونَ ۝ ﴾ [سورة الأنبياء: الآية 104].

(1) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، ص: 46.
(2) العلمانية، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، القاهرة، مكتب الطيب لخدمة التراث، السنة: 1420هـ-2000م، د: ط، ص: 703.

على أن هذه السنة مترتبة على سنة الإعداد، وماضية عبر التاريخ الإنساني الطويل، وباقية مادام الاختلاف باقيا بين الناس، حتى يرث الله تعالى الأرض ومن عليها قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [سورة هود: الآية 118].

ويحتدم التدافع نتيجة هذا الاختلاف لإقرار الحق أو إقرار الباطل قوله: ﴿ اَلذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اِللَّهِ وَالذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ اِلطَّٰغُوتِ ﴾ [سورة النساء: الآية 75].

وقد أوضح الله جل ذكره أن الجهد الإنساني للمؤمنين هو الذي يحسم الصراع بقدر الله تعالى لصالح الفئة المؤمنة؛ حيث قضت سنته في تدافع الحق والباطل أن الغلبة للحق وأهله، وأن الاندحار والمحق من نصيب الباطل وأهله قوله: ﴿ وَيَمْحُ اُللَّهُ اُلْبَٰطِلَ وَيُحِقُّ اُلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ اِلصُّدُورِ ﴾ [سورة الشورى آية 22][1].

5 - روح التدافع ومقتضى أصول العمران:

لقد قدمت نصوص القرآن الكريم الحقيقة الكلية لإدراك مقتضيات السنن، عبر خلاصات بشرية ونماذج مطلوبة من قصص الأنبياء مع أممهم، زاخرة بالقيم والقوانين التي تحرك التاريخ مسار التاريخ، أو التي تحرك التاريخ في مسارها، ذلك أن " أمر البشر في اجتماعهم وما يعرض فيه من مصارعة الحق للباطل وما يتبع ذلك من الحرب والنزال والملك والسيادة وغير ذلك قد جرى على طرق قويمة وقواعد ثابتة اقتضاها النظام العام وليس الأمر أنفا ، ولا تحكما واستبدادا "[2].

إن فقه السنن التي شرعها الله للأنفس والآفاق، من العلوم المطلوبة للمسلمين؛ فبدون العلم بها سوف يخرجون من التاريخ، وينقلبون من طاقة محركة فاعلة، قائدة، مسخرة، إلى أداة معطلة مسخرة.. سوف يتحولون من صناعة التاريخ، إلى محل لحركة التاريخ، وتجاربه. يقول الشيخ محمد رشيد رضا، عند قوله تعالى: ﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي اِلَارْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ اُلْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة آل عمران: الآية 137]

(1) السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول، محمد أمحزون، ص: 1/257-258.
(2) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 4/115.

" إن إرشاد الله إيانا إلى أن له في خلقه سننا يوجب علينا أن نجعل هذه السنن علما من العلوم المدونة لنستديم ما فيها من الهداية والموعظة على أكمل وجه، فيجب على الأمة في مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله في خلقه كما فعلوا في غير هذا العلم من العلوم والفنون التي أرشد إليها القرآن بالإجمال وقد بينها العلماء بالتفصيل عملا بإرشاده، كالتوحيد والأصول والفقه. والعلم بسنن الله تعالى من أهم العلوم وأنفعها، والقرآن سجل عليه في مواضع كثيرة، وقد دلنا على مأخذه من أحوال الأمم إذ أمرنا أن نسير في الأرض لأجل اجتلائها ومعرفة حقيقتها "[1].

هذه السنة الاجتماعية التي تحكم التجمعات البشرية، يلمح الإنسان أثرها الفاعل في كل زمان وكل مكان؛ فإذا أحسن المسلم التعامل مع سنن المدافعة يمكن أن يحقق كسبا وإنجازا لقضاياه على الرغم من الضعف والتبعثر، كما أن المسلم يوجد ضمن مجموعة النظم والسنن التي تحكم هذا العالم، ومنها سنة التدافع التي ينبغي نقلها من دائرة التجريد النظري إلى مسالك التوظيف العملي، كما كان صنيع أهل الفضل من هذه الأمة، فقد ذكر الشيخ محمد عبده رحمه الله أن : " الصحابة كانوا مهتدين بهذه السنن وعالمين بمراد الله من ذكرها، يعني أنهم بما لهم من معرفة أحوال القبائل العربية والشعوب القريبة منهم ومن التجارب والأخبار في الحرب وغيرها وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى ويهتدون بها في حروبهم وفتوحاتهم وسياستهم للأمم التي استولوا عليها، وما كانوا عليه من العلم بالتجربة والعمل أنفع من العلم النظري المحض وكذلك كانت علومهم كلها "[2].

وإذا كان التنوع هو منطق التدافع الحضاري البناء؛ فإن من مقاصده التي أسسها الوحي:

- التمكين لإظهار الحق واستمراره.

- تحقيق الصلاح والإصلاح لما يحدث في الاجتماع الإنساني من فساد وإفساد.

(1) المصدر نفسه، 114/4.

(2) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، 115/4.

- اصطفاء السبيل الأجود لارتقاء معاش الأمم، واستعادة توازنها، وعافيتها الحضارية، يقول الطاهر بن عاشور[1] في سياق تفسير قوله عز وجل: ﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۖ﴾ [سورة البقرة آية 29]." أتجعل فيها من يفسد فيها دليل على أنهم علموا أن مراد الله من خلق الأرض هو صلاحها وانتظام أمرها وإلا لما كان للاستفهام المشوب بالتعجب موقع وهم علموا مراد الله ذلك من تلقيهم عنه سبحانه أو من مقتضى حقيقة الخلافة أو من قرائن أحوال الاعتناء بخلق الأرض وما عليها على نظم تقتضي إرادة بقائها إلى أمد، وقد دلت آيات كثيرة على أن إصلاح العالم مقصد للشارع "[2] ، وفي موطن آخر يزيد الأمر بيانا فيقول: " عزز ذلك النظام بقوانين وضعها الله على ألسنة المرسلين والصالحين والحكماء من عباده، الذين أيدهم بالوحي والخطاب الإلهي، أو بالإلهام والتوفيق والحكمة، فعلموا الناس كيف يستعملون ما في الأرض على نظام يحصل به الانتفاع بنفع النافع وإزالة ما في بعض النافع من الضر وتجنب ضر الضار، فذلك النظام الأصلي، والقانون المعزز له، كلاهما إصلاح في الأرض، فإذا غير ذلك النظام فأفسد الصالح، واستعمل الضار على ضره، أو اسْتُبقِيَ مع إمكان إزالته، كان إفسادا بعد إصلاح، كما أشار إليه قوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا۟ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُن فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ ۖ﴾ [سورة الأنفال: الآية 74][3].

إن التدافع المطلوب اليوم، هو ذلك التدافع ذو المقصد التعاوني الذي يسعى إلى إشراك جميع الشعوب في تحمل مصير ومستقبل الإنسانية كافة، وينقل العلاقة بين الأطراف المتدافعة من الجمود والسكون إلى الفعل الحضاري المثمر، وتلك هي سنة الشرائع؛ لأن الغاية المهمة عندها هو إصلاح النفوس دون التشفي وحب الغلبة، أما الفتور والتراخي فيفضي إلى التبعية والتقليد، الذين ينتهيان إلى الواحدية والمركزية الحضارية، وحينئذ تؤول

(1) هو: محمد الطاهر ابن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس، وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، ولد عام (1296م) عين شيخا للإسلام هناك، وهو من أعضاء المجمعين العربيين في القاهرة ودمشق، توفي سنة (1393م). له مصنفات جليلة، منها: تفسير التحرير والتنوير، مقاصد الشريعة الإسلامية، الأعلام (174/6). التحرير والتنوير (180/15).

(2) التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، 403/1.

(3) المصدر نفسه، 175/8.

المجتمعات إلى الانحلال والبوار والحضارات إلى الدمار، ومن ثمة؛ " فالنفير الحضاري " هو عنصر أساسي ومقوم من المقومات العاملة في نشوء الحضارات، فالأمم لا تصنع الحضارة إلا بهبة جماعية تحشد فيها قوى الفرد في نطاقه الداخلي، ثم تحشد قوى الأفراد حشدا جماعيا؛ لتحقيق هدف معين تحمله الفكرة التي تحدد غاية الحياة[1] ، ومهما يكن من ترقي الإنسان الفرد في ذاته؛ فإنه لا يقدر في حال التفرد أن ينجز تلك المهمة؛ فيكون الاجتماع ضرورة حتمية لإقامة نظام العمران.

فالحضارات تتعاون بحسب ما تقدمه للإنسان من الأمان والاطمئنان والكفاية، وهذا ما نبه إليه ابن خلدون بعبارة:" اعلم أن اختلاف الأجيال في أحوالهم إنما هو باختلاف نحلتهم من المعاش، فإن اجتماعهم إنما هو للتعاون على تحصيله والابتداء بما هو ضروري منه ونشيط قبل الحاجي والكمالي "[2] ؛ فما من حضارة إلا وهي محصلة تفاعل مجموعة من الحضارات، وتلاقح فيما بينها، وترابط بين حلقاتها، وتكامل بين عناصرها، فلم يعرف العالم في أي عصر من العصور حضارة قائمة الذات لم تمتزج بحضارات أخرى، ولا عرف ثقافة خالصة، بل إن صناعة التاريخ فعل مشترك أسهم فيه كل من له عين ترى، وأذن تسمع، وعقل يعي وقلب يخفق.

ومن هذا المنطلق الحضاري؛ فإن تاريخ الحضارة الإسلامية هو: تاريخ تدافع إيجابي مع باقي الحضارات، وقد استطاعت في معظم الأحيان، أن تنوع في أنماط الاستجابة بأكبر قدر من التكيف والمرونة، وتحتوي العناصر السليمة لدى الغير، بعد تمثلها وتحويلها إلى مادة بنائية في صيرورة الحضارة الإسلامية تعين على النمو والغنى والامتداد[3] ، لذلك فالمشروع الحضاري الإسلامي أو " الجواب الإسلامي " بتعبير الأستاذ طه عبد الرحمن، لا يقر إلا بالتعاون على المعروف طلبا لتحصيل مصالح يزدوج فيها الاعتبار المادي بالاعتبار المعنوي مع إمكان تمحص الاعتبار المعنوي فيها[4].

---

(1) عوامل الشهود الحضاري، عبد المجيد عمر النجار، ص: 191.

(2) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، ط: 2، السنة: 1408هـ-1988م، (150/1).

(3) مؤشرات حول الحضارة، عماد الدين خليل، ص: 63.

(4) الحق في الاخلاف الفكري، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، البيضاء، المغرب، ط: 1، 2005م، ص: 173.

إن القوة المادية التي يمتلكها العقل الغربي، في حاجة إلى القوة التوحيدية الروحية التي تمثلها الرؤية الإسلامية الكونية، لذا يجب النظر الفسيح في مستقبل هذا التدافع الحضاري بين الغرب والعالم الإسلامي، حين يصبح إلى التناغم لا إلى التنافر أقرب؛ لأن التمازج السوي للحضارات والأمم بما هو مبدأ قرآني يستند إلى منطق التدافع الحضاري يروم تحقيق مستويات عليا من الرقي القيمي، والأداء الحضاري، وينشد الخير، والحق والعدل، والتسامح للإنسانية قاطبة، ولا يسعى في الأرض فسادا، فهو تدافع لا تنازع، وتحاور لا تناحر.

إن قصد الإصلاح والإعمار المنوطين بالاستخلاف مطالب تتداخل فيها كل الأنساق الحضارية، مادية وأخلاقية وروحية... وكل ضرر أو فساد يلحق بأحدها، ينعكس بشكل أو بآخر على الجوانب الأخرى، وما على الجماعة المؤمنة إلا أن تتحرك لوقفه بأسرع ما تستطيع، وبأقصى ما تطيق؛ لئلا يتحول الفساد إلى فتنة لا تبصر، فهي تخبط الكل، لا تبقي ولا تذر، فهدفنا ينبغي أن يظل دائما في حماية الأمم والحفاظ على مقدراتها، وليس الهجوم عليها وتدميرها؛ فالحضارات هي محصلة التجارب البشرية في سعيها نحو الرقي المادي والروحي للإنسانية، وهي حصون آمنة للجنس البشري ضد النزعات العبثية المدمرة، ومن ثمة لا ينبغي النظر إلى الآخر على أنه عدو يجب قهره، ولكن على أنه إنسان مكرم ينبغي التعامل معه بصورة تحقق حريته وكرامته[1].

هذا المبدأ يلزم أن تمتثل له الجماعة المسلمة في مهمتها العمرانية قبل غيرها؛ لأن مهمة الاستخلاف والشهادة على الناس، لا تسمحان لنا بالتحيز ضد أحد من خلق الله، أو طلب العلو في الأرض، أو تكريس الصراعات الحضارية بين البشر لنسود عليهم، فعالميتنا الإسلامية، وخروج أمتنا الإسلامية من قبل بالرسالة الخاتمة إلى الناس كافة، واستيعابنا للحضارات والثقافات والأعراق... والتزامنا بعقيدة التوحيد والتعارف بين الناس؛ كل هذا لا يسمح لنا بأن ننغمس في تعصب، أو تحيز ضد الآخرين أو استعلاء عليهم، بل إننا نعذر الغير في تحيزه ضدنا، فله من إرثه التاريخي، ونسقه الحضاري، ولاهوته الديني، ما قد يدفعه

(1) الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، طه جابر العلواني، تقديم: عبد الجبار الرفاعي، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، دار الهادي بيروت- لبنان، ط: 1، السنة: 1424هـ-2003م، ص: 137.

لذلك، أما نحن، فما يليق بنا أن نكون متحيزين أو طالبي استعلاء؛ لأننا شهداء على الناس، وحسن أداء الشهادة يتوقف على سلوك سبيل الرحمة والرأفة بالجميع[1]

المطلب الثاني: مقصد الإصلاح الاجتماعي.

لا شك أن الإصلاح الاجتماعي:" أصل شرعي من أصول الإسلام ، يقوم على قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويقتضي ذلك أن يكون في المجتمع أناس يقومون على إصلاح أموره في شؤون الدنيا والدين، بحيث تكفل قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر التقدم الدائم والمستمر للمجتمع الإنساني، مع تغير الظروف والبيئات، وتجدد المصالح والعادات، فيكون القصد من ذلك تحقيق الإصلاح الديني والخلقي والاجتماعي "[2].

" فالإصلاح الاجتماعي يقوم على إصلاح شؤون الحياة للإفراد والمجتمعات، بما يحقق لهم خير الدنيا والآخرة، فينعم الناس جميعاً بالأمن والأمان، في ظل تحقيق المسلمين لمقاصد الشريعة بإصلاح أحوالهم الدينية والدنيوية.

إن المقصد الأسمى من الإصلاح الاجتماعي في منظور مقاصد الشريعة الإسلامية يهدف إلى مقصد جليل به ينتظم شأن حياة الناس واستقرار شؤونهم والسعي إلى إصلاح أحوالهم جميعا، ما يتعلق بسائر سلوك الانسان وأنشطته في الحياة على مستوى الفرد والأسرة والمجتمع تجسيدا لقيم العدالة وتمتينا لخلق الخير والفضيلة.

وتظهر أهمية الإصلاح الاجتماعي في توفير السلام، والأمن، والطمأنينة، والعدل والمساواة بين أفراد المجتمع الواحد، ووجود الرحمة والبر والتلاحم والأخوة والتسامح الاجتماعي بين أفراد المجتمع الواحد "[3].

وتتجلى أهمية الاصلاح الاجتماعي كذلك في كونه سببا لدفع البلاء والهلاك والضنك عن المجتمعات؛ لقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴾ [سورة هود

(1) الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، طه جابر العلواني، ص: 78 بتصرف.
(2) أصول المجتمع الإسلامي ، محمود جمال الدين محمد، دار الكتاب المصري، ط:1 ،1992م، ص193.
(3) تفسير المنار، رشيد رضا، (210/11).

آية 117]. ، يقول سيد قطب:" وهذه الإشارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم. فالأمة التي يقع فيها الفساد بتعبيد الناس لغير الله، في صورة من صوره، فيجد من ينهض لدفعه هي أمم ناجية، لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير، فأما الأمم التي يَظلِم فيها الظالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيها من يستنكر، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسد، فإن سنة الله تَحقُّ عليها، إما بهلاك الاستئصال. وإما بهلاك الانحلال، والاختلال، فأصحاب الدعوة إلى ربوبية الله وحدَه، وتطهير الأرض من الفساد الذي يصيبها بالدينونة لغيره، هم صمام الأمان للأمم والشعوب، وهذا يبرز قيمة كفاح المكافحين لإقرار ربوبية الله وحدَه، الواقفين للظلم والفساد بكل صوره، إنهم لا يؤدون واجبهم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله، واستحقاق النكال والضياع.."[1].

فدعوة الإصلاح الاجتماعي يجب أن تتأصل في نفوس أفراد المجتمع، حتى يحافظوا على وجودهم وأوطانهم، ويحموا أنفسهم وأموالهم وأعراضهم من الهلاك.

وتجدر الإشارة أيضا إلى أن الإصلاح الاجتماعي يكون على مستويين:

على مستوى الفرد، وعلى مستوى المجتمع.

فالإصلاح الاجتماعي **على مستوى الأفراد**: يقوم على إصلاح الفرد عقله الذي هو الأساس لإصلاح جميع خصاله، وبعدها يأتي إصلاح أعماله؛ أي صلاح اعتقاده وعمله، وهما ركنا الإصلاح.

" فمن المعلوم أنه من صلحت عقائده وأفكاره، صلحت أعماله وأقواله، وإلا جاء مفلساً كما جاء في حديث أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ" قَالُوا الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا وَقَذَفَ هَذَا وَأَكَلَ مَالَ هَذَا وَسَفَكَ دَمَ هَذَا

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، (139/04).

وَضَرَبَ هَذَا فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"[1] "[2].

" من هذا المنطلق إصلاح الفرد ينطلق من إصلاح الاعتقاد، وهو من إصلاح العقول والفكر. وإصلاح الأعمال والتصرفات في العالم بأن لا يفسدوا في الأرض. وبينهما ووسط ثاني بينهما وهو شيء من صلاح العمل خص بالنهي؛ لأن إقدامهم عليه كان فاشياً فيهم حتى نسوا ما فيه من قبح وفساد، وهذا هو الكف عن نقص المكيال والميزان، فابتدأ بالأمر بالتوحيد؛ لأنه أصل الصلاح، ثم أعقبه بالنهي عن مظلمة كانت متفشية فيهم وهي خيانة المكيال والميزان وهي مفسدة عظيمة؛ لأنها تجمع خصلتي السرقة والغدر، ونهاهم عن الإفساد في الأرض وعن نقص المكيال والميزان "[3].

وأما الاصلاح الاجتماعي **على مستوى المجتمع** فهو الذي يشمل الإصلاح السياسي والاقتصادي والسلوكي.

والإصلاح السياسي من مقاصد القرآن؛ لأن الإسلام دين هداية وسيادة وسياسة وحكم، فما جاء به القرآن من إصلاح البشر في جميع شؤونهم، يتوقف على السيادة وإقامة الحق، والحكم بالعدل، وحماية الدين والدولة [4].

كما أن مقصد الاصلاح الاجتماعي في منظور القرآن الكريم والسنة النبوية الشريعة يدور في فلك تربية الانسان وإصلاح حاله وأحوال من حوله، فإذا صلح الانسان صلح المجتمع، وكانت للحياة معنى، ولا تتحقق إلا بالإصلاح البشري الذي دعا إليه الله عز وجل وحث عليه نبيه عليه أفضل الصلاة والتسليم، فلا كرامة للإنسان ولا عزة له إلا به،

---

(1) صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظلم، حديث: 2581،)1997/4(.

(2) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر بن عاشور، دار النفائس، الأردن،ط:1، 2001 م، ص:79.

(3) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، (06 / 136 - 137).

(4) تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (176/06).

فالإصلاح شيء عظيم ولنا في قصص الأمم السابقة عبرة لأولي الألباب. لذلك جرت السنن الالهية في هذا الفلك لتربية الإنسان وتزكيته من خلال إصلاح حاله ولم تتركه من تلقاء نفسه بل بينت له ووضحت له سبل الاصلاح من خلال إنزال الكتب وإرسال الرسل والأنبياء، تكريما لهذا الانسان، فكفى بها نعمة [1].

ومن هنا يمكن القول بأن الإصلاح الاجتماعي سواء على مستوى الفرد أو على مستوى المجتمع ككل يعتبر مقصدا مهما من مقاصد السنن الاجتماعية؛ إذ قيام المجتمع بمختلف مكوناته رهين بصلاح أفراده حكّاما ومحكومين، ولن تتحقق نهضة هذا المجتمع أو ذاك إلا بهذا الأمر.

(1) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر بن عاشور، ص:81 -82 / تفسير المنار، محمد رشيد رضا، (177/06).

المطلب الثالث: حول مقصد السير في الأرض للتفكر وأخذ العبر

إن من مقاصد السنن الإلهية السير في الأرض بقصد التفكر في أسرار الخلق، وبقصد العبرة من العواقب الوخيمة التي نالها الظالمون والجبابرة والطغاة الآثمون، والقرآن الكريم دعانا إلى السير في الأرض في كثير من الآيات، فبإمكان الإنسان أن يكتشف سر المخلوقات وبداية الحياة من خلال السير في الأرض.

إن إلحاح القرآن الكريم على الأمر بالسير في الأرض، لا لمجرد التسلي والوقوف على مصارع الأقوام الغابرة، والنظر في عاقبة المكذبين على مدار التاريخ، ولكن للاعتبار وتجنب أسباب الهلاك التي وقعوا فيها، واكتشاف سنن الله التي لا تتعطل ولا تنخرم في التاريخ حتى لا تسقط الأمة فيما سقطوا فيه وتحصدها عجلة السنن.[1]

ولقد هيأ الله تعالى الأرض للحياة بكل أنواعها لجميع من عليهم بالحياة فيها برا وبحرا وجوا وظاهرا وباطنا، وشرفها بما لم يشرف به كوكبا آخر مع قدرته غير المتناهية على خلق ما يشاء، وذلك طبقا لمعلوماتنا المحدودة كبشر، المستمدة من كتابه العزيز وسنة رسوله وخاتم أنبيائه صلى الله عليه وسلم.[2]

وحيث سخر الله الأرض للإنسان وجعلها مستقرة ومقامه ومهد له فيها كل ما يمكن أن ييسر سبل عيشه، دعاه إلى التنقل فيها لاكتشاف كل ما يمكن أن يزيد من معارفه خاصة فيما يتقرب به إلى الله، سواء عل مستوى النظر في الكون من حيث ترسيخ جانب العقيدة، أو من جهة التعرف على أحوال السابقين الذين أخذهم الله بسبب ذنوبهم، للاعتبار والاتعاض وبالتالي الحذر من تكرار نفس الخطأ، والارتباط بالله أشد الارتباط. وللأسف الشديد لم يعد يهتم بهذه القضية (السير في الأرض) إلا المتخصصين في الكشف عن صخورها وطبقاتها وصحرائها وجليدها أو ما يعرف باسم الحفريات (بقايا وآثار الكائنات التي كانت تعيش في الأزمنة والعصور الجيولوجية القديمة).

(1) مجلة الداعي الشهرية الصادرة عن دار العلوم ديوبند: العدد 6 ، مقاصد القصص القرآني . بقلم : الدكتور رشيد كهوس، ص:40.

(2) المجموعة القرآنية المتخصصة (السنن الالهية في خلق الأرض): الدكتور مصطفى الشكعة / ص:843.

فإن من الظواهر التي باتت بارزة في حياتنا اليوم، ضعف اهتمامنا بمسألة السير في الأرض، والبحث والتنقيب عن السنن، التي يمكن أن تعيننا في تصريف شؤوننا المختلفة، وتذلل أمامنا الصعاب، وتيسر لنا أمر عمارة الأرض، وفق المنهج الذي يأمرنا إسلامنا بإقامته في واقع الحياة.[1]

فإن من تأمل أوامر الله بالحث على السير في الأرض بصيغها المختلفة، ليدرك عظمة هذا الأمر، وما فيه من منافع تعود على الإنسان بالخير والرضى والاقتناع، خاصة إذا عمل الإنسان على جانب الاصلاح العقدي فيه فالنظر عقب السير في الأرض يزيدك معارف وحقائق، وترتقي نفس الإنسان عن تلك النظرة القصيرة التي كان يحيى بها وسط بيئته المحدودة،" ولهذا حمل القرآن الكريم الإنسان المسؤولية لاتباع الطريق الذي رسمه في كتابه الحكيم، ودعاه إلى السير في الأرض والتفكر في آيات الكون لاكتشاف السنن الالهية الأخرى المبثوثة في الكون والمجتمعات، ودعاه إلى دراستها عن طريق تقليب النظر في الكون، وإعمال التجربة، وكل وسائل المعرفة فيه، وتسخير كل ما يصل به إلى معرقة قانون مصلحة الإنسان وسعادته ".[2]

ولأن الأرض التي خلقها الله للإنسان لكي تستقر حياته فيها ملية بمنن الله على خلقه، مكتظة بآيات خالقها التي ما إن يتفكر الإنسان فيها وفيما تقع عليه عيناه في أرجائها الواسعة لن يملك إلا أن يؤمن بالله ربا واحدا خالقا مبدعا، هذا فضلا عن آيات أخرى كثيرة، ومنن ربانية لا حصر لها، فيكون بين أمرين لا ثالث لهما: إيمان وحسن جزاء، وحسن جزاء أو نكران وسوء عقاب، وإذن فلا مفر له من أن يطيع أمر خالقه بالسير في أكناف الأرض، حتى لا يكون له عند الله حجة إذا لم يستجب لأمره ويذعن إلى الاتجاه إلى الخالق الأعظم.[3]

فالقرآن الكريم كتاب الله تعالى يحثنا على السير في الأرض ويدعوننا إلى ذلك في عدد من آيات القرآن الكريم، وحقيقة السير تقتضي الأثر والتغير الذي يحصل لدى الانسان بعد إطلاله على هذا الكون البديع، وما حل بالأمم الغابرة التي كفرت بأنعم الله، وكفرت بالله

---

(1) أزمتنا الحضارية. في ضوء سنة الله في الخلق: الدكتور أحمد محمد كنعان، ص: 32.

(2) مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي، حازم زكريا محيي الدين، دار النوادر، دمشق- بيروت، ط: 1، السنة: 1428هـ-2007م. ، ص:38.

(3) المجموعة القرآنية المتخصصة: (السنن الالهية في خلق الأرض) الدكتور مصطفى الشكعة/ ص:847.

ربا، حتى إن بعض المفسرين حملوا السير على الاعتبار والتفكر فيما نزل بأولئك بتكذيبهم الرسل.

قال تعالى: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [سورة الأنعام آية 12] ، بالرجوع إلى كتب التفسير نجد أنّ أكثر المفسرين حملوا السير في الأرض على السير المعتاد فإذا ما وقفنا مع أبو المفسرين ابن جرير الطبري مع نفس الآية نجده يفسر السير على حقيقته، يقول في تفسير هذه الآية:" يقول تعالى ذكره: قل يا محمد لهؤلاء العادلين بيَ الأوثانَ والأندادَ، المكذِّبين بك، الجاحدين حقيقة ما جئتهم به من عندي ﴿ سِيرُواْ فِي الْأَرْضِ ﴾ يقول: جولوا في بلاد المكذِّبين رسلَهم، الجاحدين آياتي مِنْ قبلهم من ضُرَبائهم وأشكالهم من الناس ﴿ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ يقول: ثم انظروا كيف أعقبَهم تكذيبهم ذلك، الهلاكَ والعطبَ وخزيَ الدنيا وعارَها، وما حَلَّ بهم من سَخَط الله عليهم، من البوار وخراب الديار وعفوِّ الآثار. فاعتبروا به، إن لم تنهكم حُلُومكم، ولم تزجركم حُجج الله عليكم، عمَّا أنتم [عليه] مقيمون من التكذيب، فاحذروا مثل مصارعهم، واتقوا أن يحلّ بكم مثلُ الذي حلّ بهم[1].

ومهما كان من تغاير المعنى في حقيقة السير فيبقى المقصد واحد وهو الاعتبار والتفكر والاتعاظ بما حل بالمكذبين والمجرمين والذين كان أكثرهم مشركين، كما وردت الآيات المتنوعة، في اختلاف الأوصاف.

وقد يختلف المعنى بحسب حروف العطف التي تأتي قبل طلب النظر، فالنظر بعد العطف ب" ثم "، ليس كالنظر بالعطف على الفاء، جاء في الكشاف للزمخشري:

" فإن قلت: أي فرق بين قوله (**فَانْظُرُوا**) وبين قوله (**ثُمَّ انْظُرُوا**) قلت: جعل النظر مسبباً عن السير في قوله فَانْظُرُوا فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين... وأما قوله:" سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا " فمعناه: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبه على ذلك ب " ثم "، لتباعد ما بين الواجب والمباح...

(1) جامع البيان في تأويل القرآن. محمد بن جرير الطبري (11 / 272 - 273).

والخطاب في الآيات التي فيها أمر بالسير جميعها، موجه للنبي وهذا على غرار تكذيب قومه له وقولهم:" لولا أنزل عليه ملك ".[1]

وجاء في تفسير المنار: ﴿ قُلْ سِيرُواْ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴾ [سورة الأنعام آية 12] ؛ أَيْ قُلْ أَيُّهَا الرَّسُولُ لِلْمُكَذِّبِينَ بِكَ مِنْ قَوْمِكَ الَّذِينَ قَالُوا " لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ " سِيرُوا فِي الْأَرْضِ كَشَأْنِكُمْ وَعَادَتِكُمْ، وَتَنَقَّلُوا فِي دِيَارِ أُولَئِكَ الْقُرُونِ الَّذِينَ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ، وَمَكَّنَّا لَهُمْ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ، ثُمَّ انظُرُوا فِي أَثْنَاءِ كُلِّ رِحْلَةٍ مِنْ رِحْلَاتِكُمْ آثَارَ مَا حَلَّ بِهِمْ مِنَ الْهَلَاكِ، وَتَأَمَّلُوا كَيْفَ كَانَتْ عَاقِبَتُهُمْ بِمَا تُشَاهِدُونَ مِنْ آثَارِهِمْ، وَمَا تَسْمَعُونَ مِنْ أَخْبَارِهِمْ ".[2]

والسير إما للمصلحة بحيث يسعى الإنسان من ورائه للتجارة والزراعة، وإما للاعتبار .كما أسلفنا .وهذا ما نبه عليه الشعراوي في تفسيره للآية الحادية عشر من سورة الأنعام .التي مرت معنا .يقول في تفسيرها:" يعني أن الإنسان قد يسير في الأرض للتجارة أو الزراعة أو لأي عمل، وعليه أن يتفكر في أثناء ذلك وأن يتأمل، إذن فهناك سير للاعتبار وسير للمصلحة، والسير للاعتبار يعني أن يأخذ الإنسان العبرة مباشرة، أما السير للمصلحة فهو أن يأخذ الإنسان العبرة ضمن المصلحة، وكان سير قريش بقوافلها إلى الشام واليمن يجعلها قادرة على أن ترى آثار المكذبين سواء من أهل ثمود أو قوم عاد أو غيرهم، وكان عليهم أن يأخذوا العبرة في أثناء سعيهم لتجارتهم ".[3]

من خلال ما تقدّم يتضح أن الأمر بالسير في القرآن الكريم المقصود منه الاطلاع على أحوال السابقين وما حل لهم من دمار، وأن سنة الله جارية في الأمم لا تتبدل ولا تتغير ولا تختص بفترة من الفترات أو مكان من الأمكنة؛ فالسنن لا تحدها الأزمان ولا الأماكن.

(1) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ) .الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة - 1407 هـ (02 / 08).
(2) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار): محمد رشيد رضا (07 / 268).
(3) تفسير الشعراوي: محمد متولي الشعراوي، (06 / 351).

وقد أمرنا الله سبحانه بالسير في الأرض للتأمل في هذا الكون الفسيح واستحضار أحوال من سبق من الأمم الغابرة التي عاشت قرونا وأزمنة بعيدة على هذه الأرض، لنأخذ الدروس والعبر، وهذا هو المقصد الأساس من سنة السير في الأرض.

المطلب الرابع: مقصد تحقيق الأمن والاستقرار المجتمعي

إن المتأمل والمتدبّر في القرآن الكريم يجد أن الآيات الواردة بشأن " تحقيق الأمن " كثيرة جدا، ومتنوعة في مناحيها وأساليب عرضها، وهذه بعض منها:

قال سبحانه : ﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ اِجْعَلْ هَٰذَا بَلَداً ءَامِناً ﴾ [سورة البقرة: الآية 125]، أي: أن يكون محفوظا من الأعداء الذين يقصدونه بالسّوء.(1)

وقال جلّ في علاه : ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَماً ءَامِناً وَيُتَخَطَّفُ اُلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمُۥٓۖ أَفَبِالْبَٰطِلِ يُومِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اِللَّهِ يَكْفُرُونَۖ ﴾ [سورة العنكبوت: 67]، أي: يأمن فيه ساكنه من الغارة، والقتل، والسبي، والنهب، فصاروا في سلامة وعافية مما صار فيه غيره من العرب، فإنهم في كل حين تطرقهم الغارات، وتجتاح أموالهم الغزاة، وتسفك دماءهم الجنود، وتستبيح حرمهم وأموالهم شطار العرب وشياطينها.(2)

وقال جل جلاله: ﴿ فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَيٰ يُوسُفَ ءَاوِيٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ اُدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ اَللَّهُ ءَامِنِينَۖ ﴾ [سورة يوسف: 99]؛ أي: من جميع المكاره والمخاوف، فدخلوا في هذه الحال السارّة، وزال عنهم النّصب ونكد المعيشة، وحصل السّرور والبهجة.(3)

وقال تعالى: ﴿ وَضَرَبَ اَللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتَ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَاتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اِللَّهِ فَأَذَاقَهَا اَللَّهُ لِبَاسَ اَلْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَۖ ﴾ [سورة النحل:112

(1) تفسير المنار، محمد رشيد رضا (01 / 38).
(2) فتح القدير الجامع بين فنّي الرواية والدراية من علمي التفسير، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط:2، 1383 هـ / 1963 م (05 / 454).
(3) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان المنّان، للسعدي، ص: 405.

]، وهذه القرية هي: مكّة المشرفة التي كانت آمنة مطمئنة لا يهاج فيها أحد... وكانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسّر الله لها الرزق يأتيها من كل مكان.[1]

وقال سبحانه: ﴿فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝ ٱلَّذِيٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٖ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفِۭ﴾ [سورة قريش: 3-5]، أي: أن رغد الرزق والأمن من المخاوف، من أكبر النعم الدنيوية، الموجبة لشكر الله تعالى.[2]

وقال عز وجل: ﴿ أَتُتْرَكُونَ فِي مَا هَٰهُنَآ ءَامِنِينَ ۝ فِي جَنَّٰتٖ وَعُيُونٖ ۝ وَزُرُوعٖ وَنَخْلٖ طَلْعُهَا هَضِيمٞ ﴾ [سورة الشعراء: 146 - 148]، وفي هذا: تنبيه على نعمة عظيمة لا يدل عليها اسم الإشارة؛ لأنها لا يشار إليها وهي نعمة الأمن التي هي من أعظم النعم ولا يتذوق طعم النِّعم الأخرى إلا بها.[3]

والآيات في شأن " الأمن" أكثر ممّا ذكرت -وما ذكرته هنا إنما هو للتمثيل لا الحصر -، وفي ذلك إشارة واضحة إلى أهمية تحقيق الأمن الذي يعتبر الركن الأساس للاستقرار المجتمعي؛ وهذا مقصد عظيم من مقاصد سنن الله في خلقه.

كما تجدر الإشارة إلى أن تحقيق الأمن لا يقتصر فقط على مستوى الأفراد، وإنما يروم المجتمع ككل؛ لأن طبيعة الحياة تقتضي الاجتماع، " والمجتمع هو ما يتشكّل من تلاقي الأفراد واجتماعهم، الذين تربطهم روابط مصلحية مختلفة، من زواج، وتجارة، وعلم، وخدمة، وغير ذلك من المصالح التي تضطرّ الناس إلى اللقاء والاجتماع. ولما كان عيْش الفرد وحده متعذّرا، أو شاقّا؛ لاستحالة الانفراد بتحقيق مصالحه، والخوف عليه، كان وجود المجتمع ظاهرة مدنية حضارية، تهدف إلى تحقيق التعاون بين الأفراد، والتواصل في تبادل المنافع وقضاء الحاجات. فالإنسان في مأكله، وملبسه، ومشربه، وصناعته، وتجارته، وتعلّمه، والدفاع عن نفسه، في حاجة إلى غيره. وقد أكّد ابن خلدون هذه الحقيقة، وهي

---

(1) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنّان، للسعدي، ص: 451.

(2) المصدر نفسه، ص: 935.

(3) تفسير التحرير والتنوير: محمد الطّاهر ابن عاشور، (19 / 182).

أن الاجتماع الإنساني ضروري، وأن الإنسان مدني بالطبع، أي لا بدّ له من الاجتماع داخل المدينة، ويراد به العمران... "[1].

" ولما اقتضت إرادة الله تعالى قيام العمران، وإقامة الاستخلاف في الأرض، أوجد أسباب قيام المجتمعات، وروافد العيش، من أراض، وأنهار ووديان ومروج، وبحار، وحيوان، وجبال، وسهّل للأفراد والجماعات الحركة والاجتماع لتحصيلها لإقامة عيشهم وعمرانهم. وفي هذا الاجتماع البشري، تنشأ الصّلات الاجتماعية من زواج، وبيع، وشراء، وإيجار للمنافع، مما يؤدّي إلى المزيد من الاختلاط، المفضي أحيانا إلى تضارب المصالح، فينشأ عنه التّغالب، المؤدّي إلى الخصام والبغي.." [2].. قال تعالى: [سورة ص: الآية 23]، يقول صاحب التحرير والتنوير:" والسبب في ذلك من جانب الحكمة أن ﴿وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ﴾ الدواعي إلى لذّات الدنيا كثيرة، والمشي مع الهوى محبوب، ومجاهدة النفس عزيزة الوقوع، فالإنسان محفوف بجواذب السيئات، وأما دواعي الحق والكمال فهو الدّين والحكمة، وفي أسباب الكمال إعراض عن محركات الشهوات، وهو إعراض عسير لا يسلكه إلا من سما بدينه وهمته إلى الشرف النفساني، وأعرض عن الداعي الشهواني، فذلك هو العلّة في هذا الحكم بالقلّة "[3].

" ومعلوم أنّ اجتماع الناس وتلاقيهم سنّة كونية، وظاهرة مدنية، وغاية إنسانية، وحاجة فطرية، وضرورة اجتماعية؛ لتعذّر عيش الفرد وحده، وقضاء حاجاته ومصالحه بمفرده. ولما كان الاجتماع لا مفرّ منه ولا محيص عنه، وكانت النفوس متباينة في السّلوك والمناقب، مختلفة في الطبائع والرغائب، متهافتة على المصالح والمنافع، كانت عرضة للتنازع والتظالم، مما ينشأ عنه الخصام والشّجار المؤدّي في الغالب إلى التّنافر والانقسام، وغير ذلك مما يتنافى ومقاصد الاجتماع "[4].

(1) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولي الدين، المحقق، عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، ط: 1، السنة: 1425هـ-2004. ، ص: 38.

(2) المصدر نفسه، ص: 39.

(3) تفسير التحرير والتنوير: محمد الطّاهر ابن عاشور، (23 / 136).

(4) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، عبد المجيد النجّار، ص: 157.

" من هنا كان حفظ أمْن الكيان الاجتماعي من التفكّك والانحلال، من المقاصد الدّينية الكلّية التي جاء القرآن بتأمينها إيجادا وإبقاء، وتكون محفوظة بحفظ الأواصر الاجتماعية، كآصرة النكاح، وآصرة القرابة، وآصرة الصّهر..." [1]

وخلاصة ما سبق؛ أنّ من مقاصد السنن الاجتماعية تحقيق الأمن المؤدي إلى الاستقرار، لذا كان حفظ الأمن الاجتماعي من أسباب استقرار المجتمع وكذا استمرار الحياة الطبيعية وقيام الإنسان فيها بدور الاستخلاف على أتم الوجوه.

(1) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر ابن عاشور، ص: 151.

المبحث الثالث: مقاصد السنن الاجتماعية في بعدها السياسي

لاشك أن السنن الاجتماعية تمثل قانونا ثابتا ونظاما مضطردا، تسير على وفقها المجتمعات والأمم والشعوب، من حيث قيامها وسقوطها، ونهوضها وتخلفها، وقوتها وضعفها، ونجاحها وإخفاقها، وما إلى ذلك من حركة المجتمعات، مما يفسر أن هذا التغيّر العمراني والبشري تحكمه مجموعة من السنن، وبما أن المجتمعات لا يمكن أن تعيش بشكل عشوائي وفوضي كان لزاما أن تؤطّر وتُحْكم بنظام عام يسوسها نحو تحقيق الاستقرار، ومن هنا كان لمقاصد السنن الاجتماعية أثر بارز أيضا في جانبها السياسي، الذي يشكل جزءا لا يتجزأ من مكونات المجتمع البشري، إذ لا يقوم مجتمع بلا سياسة تحكمه.

لذلك آثرت تخصيص هذا المبحث لبيان أهم مقاصد السنن الاجتماعية في بعدها السياسي، وذلك من خلال نموذجين اثنين؛ أحدهما ضارب بجذوره في عمق التاريخ، قبل زمن النبوة، والحديث هنا سيكون عن مقاصد السنن الاجتماعية من خلال قصة سيدنا يوسف مع ملك مصر، وثاني النماذج ليس بالبعيد جدا، بل لازال ذكره قائما خاصة بين المشتغلين بالتاريخ الإسلامي، وكلامنا هنا حول سقوط الأندلس، وتفصيل ما سبق سيكون من خلال المطلبين الآتيين:

المطلب الأول: مقاصد السنن الاجتماعية من خلال قصة سيدنا يوسف عليه السلام

" إن القارئ لقصة يوسف عليه السلام ليجد تضاعيف سردها التاريخي صورة للوضع السياسي التي كانت تعيشه مصر آنذاك، ولشكل النظام السياسي الذي يرأسه الملك ويعاونه رئيس وزراء، وصورة أيضا عن حياة القصر العابثة، وللوضع الاجتماعي بصفة عامة؛ حيث لم تكن المجاعات غريبة عن مصر، وصورة إغماض عين الملك عن كلّ ذلك إلى أن تفاجئه الرؤيا فترعبه، فيهرع إلى تفسيرها، ويستنجد بالملأ القريب والبعيد ليعبروها، وهذه كانت مقدمات لتمكين يوسف عليه السلام.."[1].

---

(1) سورة يوسف دراسة تحليلية، أحمد نوفل، ص: 71 - 73 (بتصرّف) / أنظر كذلك: الورثة الصالحة للحضارة، فاروق حمادة، ص: 23، وما بعدها.

وبهذه البوادر تبدأ قصة يوسف مع القيادة السياسية، بأسلوبه يجمع القيادة الصادقة والحكمة، ولا يخفى أن" القيادة الحكيمة ركن هام من أركان النّصر، ويخطئ من يظنّ أنّ أمة تستطيع أن تحقّق النصر بلا قيادة مخلصة حكيمة... ويُجمع الخبراء والمحلّلون أن القائد ليس فردا عاديا، ولا يستحقّ أحد من الأفراد أن يكون قائدا ما لم تجتمع فيه مواصفات خاصة "[1].

وهكذا اقتضت سنة الله في المجتمع أن يرتبط نجاحه حضاريا ويحوز الريادة والتمكين والنّصر، بنجاحه السياسي؛ أي من خلال حكمة قائد ذلك المجتمع في التخطيط واتخاذ القرارات المناسبة، سواء كان ملكا أو رئيسا أو وزيرا أو غير ذلك...

" وكانت أول خطوة سياسية قام بها سيدنا يوسف عليه السلام؛ هي طلب ترشحه لشغل منصب الوزير من ملك مصر، يقول الله تبارك وتعالى على لسان سيدنا يوسف عليه السلام: ﴿قَالَ اَجْعَلْنِے عَلَيٰ خَزَآئِنِ اِلَارْضِ إِنِّے حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾ [سورة يوسف آية 55] ، لقد كانت خطوته السياسية هاته ذات بعد تمكيني لهذا الدين، فقد قام بذلك من أجل عقيدته ودعوته وتقديم الخير للنّاس، ولقد تحرّك يوسف عليه السلام وفق الإمكانات والظروف التي مرّ بها واستفاد من الفرصة التي سنحت له.

وهذا المسلك الذي اتخذه يوسف عليه السلام يدلنا على أن طرائق نشر الإسلام، ودعوة المجتمعات إلى الإيمان له أكثر من سبيل، كما أن هذا المسلك لا يوجد فيه تناقض بين المبدأ الذب يحمل رايته، وهو أن الحكم لله والعبودية المطلقة للواحد الدّيان وبين تولّيه الوزارة، ليجعل المجتمع أقرب إلى دعوة الله، وهذا امر لا شك فيه، لأن يوسف عليه السلام نشر دعوة التوحيد في السّجن، فكيف به وهو في سُدّة الحكم.."[2].

ولتحقيق سياسة حكيمة ورشيدة تعود بالنفع على المجتمع، اقتضت سنة الله تعالى أيضا أن يكون التخطيط عنصرا مهما من عناصر التمكين وتحقيق النصر، والتخطيط في مفهومه المعاصر - كما عرّفه محمد بن شاكر الشريف - هو:" التفكير والتدبر الذي ينتج

(1) تبصير المؤمنين بفقه النّصر والتمكين في القرآن الكريم، عليّ الصّلابي، ص: 93 (بتصرّف).
(2) تبصير المؤمنين بفقه النّصر والتمكين في القرآن الكريم، عليّ الصّلابي، ص: 93.

عنه إجراءات محددة للوصول إلى الهدف في حيز زمني معلوم عبر خطوات تراعي الإمكانات والبدائل المتاحة والعقبات التي تعترض تحقيق الهدف وكيفية التعامل معها "[1].

وقد وضع سيدنا يوسف عليه السّلام بسياسته الحكيمة خطّة استراتيجية متقنة؛ بناء على المعطيات التي استنتجها، وفقهه الدقيق للواقع، وهكذا نجد أن القرآن الكريم " صوّر لنا الخطّة الاقتصادية طويلة الأجل التي ألهمها الله إلى ملك مصر، وفهمها النبيّ يوسف عليه السلام، وهي أول خطّة اقتصادية طويلة الأجل في تاريخ الإنسانية ذكرها الله تعالى لنا في قرآنه حتى نعتبرها مثالا يمكن الاقتداء بها لحل مشكلات مشابهة "[2].

" وهذه الخطة الاستراتيجية امتدت لخمسة عشر عاما، وشملت الإنتاج والادّخار والاستهلاك والتوزيع "[3].

وهذه تفاصيل الخطة التي اقترحها يوسف عليها السلام، كما وردت في القرآن الكريم، من خلال قوله تعالى: ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْباً فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَاكُلُونَ ۝ ثُمَّ يَاتِے مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَاكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ۝ ثُمَّ يَاتِے مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ اُ۬لنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ [سورة يوسف آية 47-49].

يقول سيد قطب في الظلال، مبينا معاني هذه الآيات:" : ﴿ قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأْباً ﴾ ؛ أي متوالية متتابعة، وهي السنوات السبع المخصبة المرموز لها بالبقرات السمان﴿ فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ﴾ ؛ أي فاتركوه في سنابله لأن هذا يحفظه من السوس والمؤثرات الجوية﴿ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تَاكُلُونَ ﴾ ؛ فجردوه من سنابله، واحتفظوا بالبقية للسنوات الأخرى المجدبة المرموز لها بالبقرات العجاف،﴿ ثُمَّ يَاتِے مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ ﴾ ، لا زرع فيهن ﴿ يَاكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ ﴾ ؛ وكأن هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها كل ما يقدم لها لشدة نهمها وجوعها،) ﴿ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴾ ؛ أي إلا قليلا مما تحفظونه وتصونونه من التهامها، ﴿ثُمَّ يَاتِے مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ اُ۬لنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴾ ؛ أي ثم تنقضي هذه

---

(1) إدارة الدولة الإسلامية، محمد بن شاكر الشريف، ص: 18.

(2) أبعاد اقتصادية في قصة يوسف عليه السلام في ضوء القرآن الكريم، فياض صالح علي، ص: 12.

(3) دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، ص: 182.

السنوات الشداد العجاف المجدبة، التي تأتي على ما خزنتم وادخرتم من سنوات الخصب، تنقضي ويعقبها عام رخاء، يغاث الناس فيه "[1].

وهذه القصة تعطينا فائدة مهمة تتجلى في أهمية السياسية الحكيمة للشخص الذي يقود المجتمع، وكذلك ترشدنا إلى أخذ العبر من هذه السنن الإلهية في الأمم والمجتمعات؛ كي نستفيد منها في الجانب السياسي؛ سواء تعلق الأمر بالتخطيط المحكم، أو الرجوع إلى أهل العلم والخبرة للاستفادة من خبرتهم وما آتاهم الله من حكمة، وهكذا يمكن أن تتحقق سنّة التمكين في الأرض.

" كما تجلي لنا هذه القصة أثرا آخر لسنة التمكين في سياسة يوسف الصّدّيق الاقتصادية، إذ وسعت نشاطها خارجيا، لذلك فكّر سيدنا يوسف عليه السّلام بتوسيع خطّته الاقتصادية، وأصبح الفائض في مصر هو ملك لكل النّاس ويحقّ لأي كان أن يأتي ليأخذ الطّعام...وجعل لكل شخص بطاقة خاصة به حتى يعرف من خلالها أنه حصل على الطّعام كي لا يحصل أيّ نوع من الفوضى..." [2].

وهكذا نخلص إلى أن السنن الإلهية تظهر مقاصدها أيضا في المجال السياسي الذي لا غنى لأي مجتمع عنه، بل ولا قيام للمجتمعات إلا بسياسة تنظم العلاقة فيما بينهم، وقد اقتضت سنة الله أن يكون التمكين في الأرض لسيدنا يوسف من خلال سياسته الرشيدة، التي تجلت في التخطيط المحكم، وتدبير شؤون الناس والقيام على مصالحهم، وقد صوّر لنا القرآن الكريم تلك الحقائق، وكيف استطاعت سياسة سيدنا يوسف عليه السلام أن تحقق الأمن الغذائي للبلاد التي كان يُدِيرُ شؤون حكمها والتي كانت تعاني من الجفاف المتتابع، بل واستطاع أن يُؤمّن الغداء للبلدان المجاورة كذلك؛ وهو ما يعرف في العصر الحالي بفائض الإنتاج..

(1) في ظلال القرآن، سيد قطب، (1994/04).

(2) أبعاد اقتصادية في قصة يوسف عليه السلام في ضوء القرآن الكريم، فياض صالح علي، ص: 13 (بتصرّف).

المطلب الثاني: مقاصد السنن الاجتماعية من خلال واقعة سقوط الأندلس.

لاشك أن القارئ للتاريخ والمتأمل في أحداثه وما جرياته يكاد ينظر إلى المآل في المستقبل؛" ذلك أنّ أحداث المستقبل هذه لن تتم إلا على هذه السنن الثابتة، التي جعلها الله في تبديل الأمم وتغيير أحوالها... والمؤمن العاقل هو الذي لا يبدأ من الصّفر فيكرّر كلّ ما فعله السابقون، وإنّما يقف أمام تاريخهم فيسير على درب من أصاب فأفلح، ويبتعد عن طريق المخطئين الخاسرين "..

والتاريخ الإسلامي حافل بالأحداث المؤثرة والتي شكّلت منعطفا كبيرا في مسار هذه الأمة، ولعل من أبرزها تاريخ الأندلس من النشأة إلى السقوط؛ لأنه " يشمل أكثر من ثمانمائة سنة كاملة من تاريخ الإسلام... ولطول فترته، مرّ فيه كثير من دورات التاريخ التي أكملت ثم انتهت، فسنن الله في تاريخ الأندلس واضحة للعيان؛ فقد قام فيه كثير من الدّول وارتفع نجمها، وسقط فيه - أيضا - كثير من الدّول وأفل نجمها "[1].

ويمكن القول بأن سقوط الأندلس - كما عبّر عنه الدكتور راغب السرجاني - " لم يكن بالسقوط المفاجئ، فقد كلن هذا متوقّعا منذ أكثر من مائتي عام "[2].

وكان ذلك راجعا لأسباب عديدة، ذكر بعضها الدكتور أبو اليسر رشيد كهوس، إذ يقول:" كان الاستغراق في الترف والتبذير والركون إلى الدّنيا وملذّاتها وشهواتها ومغرياتها، والخنوع والدعة والميوعة والفسق والفجور وحب الدّنيا وشهوة السّلطة... هي أولى العوامل التي أدّت إلى تلك النهاية المؤلمة للأندلس - بلاد العلم والفقه والحضارة - "[3].

ويقول الدكتور راغب السرجاني:" وقد تشابهت عوامل سقوط وضياع الأمم في الأندلس في كلّ فترات الضعف الأندلسي، وخاصّة في الفترة الغرناطية "[4].

(1) قصّة الأندلس من الفتح إلى السّقوط، د. راغب السرجاني، ص: (514).
(2) المصدر نفسه، ص: 715.
(3) سقوط الأندلس من منظور السّنن الإلهية، الدكتور أبو اليسر رشيد كهوس، مجلّة الإبصار، العدد الثاني، ص: 136 - 137.
(4) قصّة الأندلس من الفتح إلى السّقوط، د. راغب السرجاني، ص: 690.

وممّا ذكره كثير من الباحثين في تاريخ الأندلس وأسباب سقوطها، نجد قضية " الترف "؛ أي سعة الرزق وكثرة الأموال، وقد كان هذا الأمر مؤذنا بفساد عظيم، وهذه سنة الله في الترف والمترفين، لذلك نجد أن عاقبة الترف والمترفين تكون وخيمة، وذلك في آيات قرآنية كثيرة[1].

يقول عبد الحليم عويس، في كتابه: التكاثر المادّي وأثره في سقوط الأندلس:".. كان من أهم المصادر المفضية إلى التكاثر المادّي؛ سعة الأرض الأندلسية التي استولى عليها الفاتحون المسلمون...، ووقع نوع من التنافس على المظاهر بغية إظهار القوّة والعظمة في المدن الأندلسية المختلفة...، والتسابق إلى تجميع الثروات وبناء القصور الشامخة ليسكنها الأقلية من المجتمع الأندلسي، ومن مظاهر الترف في مرحلة النّاصر مثلا؛ تشييد مدينة الزهراء - قصر الزهراء - الذي كلّف الدولة ميزانية كبيرة...، وفي العهد الغرناطي بنيت الحمراء التي موهوا حيطانها بالزخرف الذهبي البديع، وكانت على الجبل المجاور للحمراء وسهوله الواسعة الأرجاء عشرات الألوف من القصور الفخام..."[2].

ومن مظاهر الترف أيضا " تموين الجيوش وبلاطات الأمراء والأثرياء بالجواري والعبيد والخدّم "[3].

هذا وإن اصطباغ حياة الأمراء وأقرانهم بمظاهر الترف والرفاه؛ أدى إلى بروز ظواهر أخرى كنتيجة للترف حيث ظهر نوع من التحلّل الاجتماعي وبعض الشّرور..، وشاع حبّ الترف والتأنق، والموسيقى والتعلّق بالغناء، والتورّط أحيانا في الهو والمجون.." [4].

وهذا فقط غيض من فيض، وإلا فمظاهر الترف التي كانت تسود في المجتمع الأندلسي أكثر مما ذكرت.

---

(1) من ذلك: الآية 16 من سورة هود / الآية 22 من سورة الزخرف / الآية 16 من سورة الإسراء / الآية 34 - 35 من سورة سبأ، وغيرها من الآيات التي تبين عاقبة الترف والمترفين، وهذه سنة الله في خلقه، وهي مضطرة ومحققة في كلّ زمن.

(2) التكاثر المادّي وأثره في سقوط الأندلس، عبد الحليم عويس، ص: 06 - 19 (بتصرّف).

(3) الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، عصمت عبد اللطيف دندش، ص 285.

(4) تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرّائي، ص: 426 - 426.

وما نخلص إليه أن مظاهر الترف ساقت الأندلس إلى السقوط والانهيار وإلى تلك النهاية المؤلمة، لأن الترف المبالغ فيه يؤدي إلى فساد المجتمع، ويستوجب غضب الله، فإذا وجدت تلك الأسباب حينئذ يتحقق وعد الله وكلمته، لأن أسباب هلاك الأمم سنة إلهية ثابتة لا تتغير ولا تتبدّل.

" لقد أعمى الترف حكام غرناطة عن كلّ معنى من معاني الآخرة، وعن كلّ قيمة من قيم الإسلام، وعن كلّ إحساس بالمسؤولية الإسلامية نحو الأمة المسلمة المنكوبة.." [1]، فانحرفت سلوكاتهم وتصرفاتهم عن المنهج الربّاني الصحيح، فحقّ فيهم وعد الله بالإهلاك؛ حيث " تَقرّر سنة الله هذه في إهلاك من انغمس في الشهوات، وأسرف في الملذات، وتحلل من القيم والأخلاق ولازم الفسق والانحلال والفساد "[2].

كما أنّ حُكّام غرناطة لم يستفيدوا من دروس الهزائم التي سبقتهم، فسقطوا في نفس المنزلقات والمآزق التي وقع فيها أسلافهم، فخذلوا بسياساتهم فاتحي الأندلس وما بذلوه من تضحيات لنشر دين الله في الأرض، وخذلوا كل الأسماء التي صنعت تاريخ المجد الأندلسي..

لقد انعكس هذا الإعراض عن منهج الله بشكل سلبي على حكام غرناطة؛ فاتسمت تصرّفاتهم السياسية بالسوء والانحراف والشذوذ؛ فانشغلوا بالنزاعات الداخلية والهامشية، وصرفوا الجهود في خصومات كانت أولى أن تتحد لتواجه العدوّ، في وقت كان العدوّ يقوى والنصير يقل...، ووقعوا المعاهدات المشبوهة والمهينة مع الملوك النصارى والتي نقضت الواحدة تلو الأخرى[3].

وقد ترتب عن هذه السياسة أمر آخر لا يقل خطورة عمّا سلف ذكره؛ وهو تغييب فكرة الجهاد في سبيل الله رغم أن " الجهاد سنّة ماضية إلى يوم القيامة، وقد شرعه الله ليعيش المسلمون في عزة ويموتون في عزّة، ثم يدخلون بعد ذلك الجنّة ويخلدون فيها.." [4]، فأمراء الأندلس " نقضوا عهد الله وعهد رسوله وخانوا أمتهم...، وتقاعسوا عن الدّفاع عن

---

(1) التكاثر المادّي وأثره في سقوط الأندلس، عبد الحليم عويس، ص: 24.
(2) فقه النّصر والتمكين عند دولة المرابطين، علي الصلّابي، ص: 210 (بتصرّف).
(3) التاريخ الأندلسي وأثره في سقوط الأندلس، عبد الحليم عويس، ص: 38. (بتصرّف).
(4) قصة الأندلس، د. راغب السرجاني، ص: 691.

حمى الإسلام وأهلها ولازموا الذنوب والمعاصي والمهلكات فحق عليهم القول رغم كثرة عددهم "[1].

وهذا هو " المصير الذي تحقّق في دولة الإسلام في الأندلس، لأنهم تنكبوا طريق الحق وصادموا سنّة الله في الاجتماع والبقاء، فعاقبتهم سنته.." [2].

فسنن الله الحاكمة في الكون والحياة ثابتة ومطردة، وكما حكمت على الأولين تحكم الآخرين، كلّما توفّرت نفس الشّروط والأسباب، فكل من تجبّر في الأرض ولم يستفد من سنن الله فيمن سبق من الأمم الهالكة فإنه يلقى المصير نفسه.

وهكذا " فقد اندثرت حضارة ما عرفت أوربا مثلها من قبل؛ إنها حضارة الدنيا والدّين، وقد انطوت صفحة عريضة خسر العالم أجمع أوربّا بسببها الكثير والكثير، وقد ارتفع علم النّصرانية فوق صرح الإسلام المغلوب، وأفل وإلى الآن نجم دولة الإسلام في بلاد الأندلس "[3].

وهكذا كانت النهاية الحزينة للأندلس.

وفي الختام يمكن القول بأن سنن الله في الأمم والمجتمعات محقّقة لا محالة، والفوز والنجاة يكون لمن أخذ العبرة واعتبر.

وقد حاولت ذكر جانبين من تجليات السنن الإلهية في بعدها السياسي، أحدهما مشرق وهو السياسة الرشيدة لسيدنا يوسف، ورأينا كيف تنجح في تدبير شؤون المجتمع، وثانيهما مظلم - مع الأسف - وهو سقوط الأندلس؛ وذلك راجع بالأساس إلى الفساد السياسي في مكونات الأسر الأندلسية الحاكمة.

لنخلص في نهاية المطاف إلى أن سنن الله في المجتمعات باقية إلى أن تقوم الساعة، وأن دوام الحال من المحال - كما يقال -.

---

(1) سقوط الأندلس من منظور السّنن الإلهية، د. رشيد كهوس، ص: 183.
(2) فقه السنن الإلهية وأثره في الدّعوة، هادف مصطفى، ص: 300.
(3) قصة الأندلس، د. راغب السرجاني، ص: 669.

خاتمة:

الحمد الله الذي بنعمته تتم الصالحات، أحمده سبحانه وتعالى على توفيقه وإنعامه عَليَّ بإتمام هذا البحث، والذي حاولت أن أبرز من خلاله مقاصد السنن الاجتماعية في ضوء القرآن الكريم. وقد خَلُصتُ في نهايته - بتوفيق الله وحُسنِ عونه - إلى مجموعة من النتائج، ذكرت بعضاً منها في ثنايا البحث، وسأُجْمِل الباقي فيما يلي:

- أن كلمة " سنن " في السياق القرآني، لها دلالات متقاربة من حيث المعنى، ومن ذلك:

سنن الله؛ أي الطرق التي يصرف الله بها هذا الكون علوية وسفليه وفق إرادته وحكمته المطلقة، وبما يحقق مصلحة الإنسان عاجلا وآجلا، ويضمن تعاقب الأجيال وفق نظام ثابت ومستقر. وسنة الأنبياء والسابقين؛ شرائعهم وطرائقهم ومناهجهم. وسنة الله في إهلاك المكذبين ونصر رسله وأوليائه والمؤمنين؛ أي؛ قوانينه وطرائقه ونظمه الثابتة في ذلك، والتي لا تتغير ولا تتبدل أبدا.

- أن السنن الاجتماعية هي منهج الله تعالى في عمارة الأرض وحفظ نظام الحياة الإنسانية على مقتضى حكمته البالغة وعدله المطلق ومشيئته النافذة، وهي القواعد والضوابط والقوانين التي سنّها الله عز وجل لتحكم أحوال البشر وسلوكاتهم، وأقام عليها نظام المجتمع من أجل هداية الناس وإصلاحهم على مستوى الأفراد والجماعات، لضمان الاستقرار في الحياة الدنيوية، والسعادة الأخروية، وهذه السنن هي التي تحكم مسيرة المجتمعات البشرية، وتؤطر حركتها وتوجه أحداثها، وهي ثابتة مستمرة، لا تتخلف بتغير الأزمنة والأمكنة.

- أنّ هذه السنن الاجتماعية امتازت بخصائص عديدة أبرزها؛ أنها من عند الله تعالى الحكيم الخبير؛ وهذه الخاصيّة هي " خاصيّة الربّانية "؛ مما يؤكد أن هذه السنن لا تخرج عن منهج الله وحكمته في تدبير شؤون خلقه، وعن هذه الخصّيصة (الربّانية) انبثقت باقي الخصائص الأخرى، التي تميزت بكونها متناغمة ومترابطة فيما بينها، في إطار منظومة متكاملة.

- أن حال أيّ أمة من الأمم ماضيا وحاضرا ومستقبلا، لا يستقيم، إلا إذا فهمت حقيقة السنن الاجتماعية، وانسجمت حياتها وتكيفت مع هذه القانون الإلهي، وأحسنت التعامل معه، حينئذ يستقيم نظام حياتها، ويتحقق مبدأ سعادة في العاجل والآجل.

- أن علم السنن الاجتماعية كان ومازال من العلوم الاستراتيجية المهمة للأمم التي تبحث عن مكان لها في المستقبل، ولتلك الأمم التي تبحث عن البقاء في عالم تتصارعه القوى، ولتلك الأمم التي تنشد الهناء والسعادة في عالم تتلاطم فيه كل أنواع المصائب والنكبات.

- أن كل من يدرك مقاصد السنن الاجتماعية يعلم أن كل ما يجري في مجتمعاتنا وما جرى في المجتمعات السابقة لم يكن بالصدفة، وإنما يجري وفق سنن غير مضطردة تسري على الجميع، مما يجعل الفرد تشبثا بها.

- أن الوقوف على مقاصد السنن الاجتماعية، يزداد به قلب المؤمن إيمانا بوجود خالقه، واتصافه بالتوحيد في صفاته وذاته وأفعاله، وأيضا ليسترشد غير المؤمن إلى الوصول والإقرار بوحدانية الباري جل ثناؤه، وبهذه تحقق تلك السنن أعلى المقاصد وأسماها.

- أن الإيمان باليوم الآخر يعتبر بمثابة الدافع والمحفِّز للعمل؛ فإن استقر في القلبِ فالإنسانُ بكل جوارحه يتجه إلى العمل الصالح، وهذا مقصد مهم أيضا من مقاصد السنن الاجتماعية على مستوى الفرد خاصة.

- أن دراسة السنن الاجتماعية المبثوثة في القرآن الكريم تحقق للدارس مقصدا مهما وهو إدراك حقيقة كون هذا الكتاب المقدس معجز في لغته وفي تشريعاته وفي أخباره عن الأمم السالفة وعما ستؤول إليه الأحداث والوقائع في المستقبل، إضافة إلى التأكيد على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم باعتبار المبلغ لهذا القرآن الكريم، فهو الواسطة بين الحق والخلق.

- أن صلاح المجتمعات والأمم والحضارات يكون بالسير على أنوار السنن الإلهية؛ ويكون ذلك بفهم مقاصدها ومراميها.

فهرس الآيات القرآنية:

الآية القرآنية	السورة / رقمها	الصفحة
﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَادْعُواْ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ وَلَن تَفْعَلُواْ فَاتَّقُواْ النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾	[سورة البقرة الآية 22-23]	3
﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾	[سورة البقرة الآية 29]	4
﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ الْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَٰوَٰتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾	[سورة البقرة الآية 30-32]	4
﴿قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْداً فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُۥ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَٰطَتْ بِهِۦ خَطِيٓـَٔتُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾	[سورة البقرة الآية 79-81]	7
﴿لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُوداً أَوْ نَصَٰرَىٰ﴾	[سورة البقرة الآية 110]	10
﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَآءُ وَالضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُواْ حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾	[سورة البقرة الآية 212]	18
﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَٰلَمِينَ﴾	[سورة البقرة الآية 249]	22

﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيّاً وَلَا نَصْرَانِيّاً وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفاً مُّسْلِماً وَمَا كَانَ مِنَ اَلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّ أَوْلَي اَلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلذِينَ اَتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا اَلنَّبِيٓءُ وَالذِينَ ءَامَنُواْ وَاللَّهُ وَلِيُّ اُلْمُومِنِينَ﴾	[سورة آل عمران الآية 66-67]	30
﴿كُونُواْ رَبَّٰنِيِّنَ بِمَا كُنتُمْ تَعْلَمُونَ اَلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ﴾	[سورة آل عمران الآية 78]	30
﴿وَلْتَكُن مِّنكُمُۥٓ أُمَّةٞ يَدْعُونَ إِلَي اَلْخَيْرِ وَيَامُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ اِلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ اُلْمُفْلِحُونَ﴾	[سورة آل عمران الآية 104]	33
﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٞ فَسِيرُواْ فِے اِلَارْضِ فَانظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ اُلْمُكَذِّبِينَ﴾	[سورة آل عمران الآية 137]	35
﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ اَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اِللَّهِ كِتَٰباً مُّوَجَّلاً﴾	[سورة آل عمران الآية 145]	35
﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ اَلذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِے لَهُمْ خَيْرٞ لِّأَنفُسِهِمُۥٓ إِنَّمَا نُمْلِے لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْماً وَلَهُمْ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾	[سورة آل عمران الآية 178]	38
﴿يُرِيدُ اُللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ اَلذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾	[سورة النساء الآية 26]	42
﴿اَلذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ فِے سَبِيلِ اِللَّهِ وَالذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِے سَبِيلِ اِلطَّٰغُوتِ﴾	[سورة النساء الآية 75]	45
﴿لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ اِلْكِتَٰبِ مَنْ يَّعْمَلْ سُوٓءاً يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ اِللَّهِ وَلِيّاً وَلَا نَصِيراً﴾	[سورة النساء الآية 122]	50

﴿وَمَنَ اَحْسَنُ دِيناً مِّمَّنَ اَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلهِ وَهُوَ مُحْسِنٞ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفاًۖ﴾	[سورة النساء الآية 124]	50
﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْۖ وَإِنَّ اَلذِينَ اَخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِے شَكّٖ مِّنْهُۖ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ اِلَّا اَتِّبَاعَ اَلظَّنِّۖ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِيناَۢ بَل رَّفَعَهُ اُللَّهُ إِلَيْهِۖ وَكَانَ اَللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماًۖ﴾	[سورة النساء الآية 156-157]	53
﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِےٓءٍ عَدُوّاً شَيَٰطِينَ اَلانسِ وَالْجِنِّ يُوحِے بَعْضُهُمُۥٓ إِلَيٰ بَعْضٖ زُخْرُفَ اَلْقَوْلِ غُرُوراًۖ﴾	[سورة الأنعام الآية 113]	72
﴿وَالذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِے لَهُمُۥٓۖ إِنَّ كَيْدِے مَتِينٌۖ﴾	[سورة الأعراف الآية 113]	73
﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّيٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٞ وَيَكُونَ اَلدِّينُ كُلُّهُۥ﴾	[سورة الأنفال الآية 39]	92
﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٖ وَيَحْيِيٰ مَنْ حَيِيَ عَنۢ بَيِّنَةٖۖ وَإِنَّ اَللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌۖ﴾	[سورة الأنفال الآية 43]	92
﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَۖ وَالذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ اِللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اُللَّهُ بِذُنُوبِهِمُۥٓۖ إِنَّ اَللَّهَ قَوِيّٞ شَدِيدُ اُلْعِقَابِۖ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اَللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّراً نِّعْمَةً اَنْعَمَهَا عَلَيٰ قَوْمٍ حَتَّيٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ اَللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌۖ﴾	[سورة الأنفال الآية 53-54]	93
﴿وَلَقَدَ اَهْلَكْنَا اَلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُومِنُواْۖ كَذَٰلِكَ نَجْزِے اِلْقَوْمَ اَلْمُجْرِمِينَۖ ثُمَّ جَعَلْنَٰكُمْ خَلَٰٓئِفَ فِے اِلَارْضِ مِنۢ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَۖ﴾	[سورة يونس الآية 13-14]	106
﴿إِنَّ اَللَّهَ لَا يَظْلِمُ اُلنَّاسَ شَيْـٔاً وَلَٰكِنَّ اَلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَۖ﴾	[سورة يونس الآية 44]	108
﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ اَلْقُرِيٰ بِظُلْمٖ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَۖ﴾	[سورة هود الآية 118]	118

﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُوْلِي اِ۬لَالْبَٰبِۖ مَا كَانَ حَدِيثاً يُفْتَرَيٰ وَلَٰكِن تَصْدِيقَ اَ۬لذِے بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَےْءٖ وَهُديٗ وَرَحْمَةٗ لِّقَوْمٖ يُومِنُونَۖ﴾	[سورة يوسف الآية 110]	125
﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اُ۬للَّهُ اُ۬لْحَقَّ وَالْبَٰطِلَۖ فَأَمَّا اَ۬لزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءٗ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ اُ۬لنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي اِ۬لَارْضِۖ﴾	[سورة الرعد الآية 19]	127
﴿وَلَقَدُ اُسْتُهْزِۓَ بِرُسُلٖ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذتُّهُمْۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِۖ﴾	[سورة الرعد الآية 33]	128
﴿لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞۖ﴾	[سورة الرعد الآية 39]	128
﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اَ۬للَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِۦ رُسُلَهُۥٓۖ إِنَّ اَ۬للَّهَ عَزِيزٞ ذُو اُنتِقَامٖۖ﴾	[سورة ابراهيم الآية 49]	139
﴿مَّا تَسْبِقُ مِنُ اُمَّةٍ اَجَلَهَا وَمَا يَسْتَـْٔخِرُونَۖ﴾	[سورة الحجر الآية 5]	132
﴿وَعَلَي اَ۬للَّهِ قَصْدُ اُ۬لسَّبِيلِ﴾	[سورة النحل الآية 9]	135
﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ اَ۬لْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاٗۖ﴾	[سورة الإسراء الآية 85]	146
﴿قُل لَّئِنِ اِجْتَمَعَتِ اِ۬لِانسُ وَالْجِنُّ عَلَيٰٓ أَنْ يَّاتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا اَ۬لْقُرْءَانِ لَا يَاتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٖ ظَهِيراٗۖ﴾	[سورة الإسراء الآية 88]	147
﴿وَرَبُّكَ اَ۬لْغَفُورُ ذُو اُ۬لرَّحْمَةِۖ لَوْ يُؤَاخِذُهُم بِمَا كَسَبُواْ لَعَجَّلَ لَهُمُ اُ۬لْعَذَابَۖ بَل لَّهُم مَّوْعِدٞ لَّنْ يَّجِدُواْ مِن دُونِهِۦ مَوْئِلاٗۖ﴾	[سورة الكهف الآية 57]	101
﴿وَاهْجُرْنِے مَلِيّاٗۖ﴾	[سورة مريم الآية 46]	155
﴿فَإِمَّا يَاتِيَنَّكُم مِّنِّے هُديٗ فَمَنِ اِتَّبَعَ هُدٰايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَيٰۖ وَمَنَ اَعْرَضَ عَن ذِكْرِے فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةٗ ضَنكاٗ وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ اَ۬لْقِيَٰمَةِ أَعْمَيٰۖ﴾	[سورة طه الآية 120-122]	161

﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَاماً وَأَجَلٌ مُّسَمّيٌ﴾	[سورة طه الآية 127]	162
﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾	[سورة الأنبياء الآية 106]	167
﴿وَنُقِرُّ فِے اِ۬لَارْحَامِ مَا نَشَآءُ إِلَيٰٓ أَجَلٍ مُّسَمّيٗ﴾	[سورة الحج الآية 5]	167
﴿اُذِنَ لِلذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُواْۖ وَإِنَّ أَ۬للَّهَ عَلَيٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ اِ۬لذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ اِلَّآ أَن يَّقُولُواْ رَبُّنَا أَ۬للَّهُۖ وَلَوْلَا دِفَٰعُ أُ۬للَّهِ اِ۬لنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اَ۪سْمُ أُ۬للَّهِ كَثِيراًۖ وَلَيَنصُرَنَّ أَ۬للَّهُ مَن يَّنصُرُهُۥٓۖ إِنَّ أَ۬للَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾	[سورة الحج الآية 37-38]	169
﴿اَيَحْسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِۦ مِن مَّالٖ وَبَنِينَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِے اِ۬لْخَيْرَٰتِۖ بَل لَّا يَشْعُرُونَ﴾	[سورة المؤمنون الآية 56-57]	174
﴿وَعَدَ أَ۬للَّهُ أُ۬لذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ أُ۬لصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِے اِ۬لَارْضِ كَمَا اَ۪سْتَخْلَفَ أَ۬لذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ أُ۬لذِے اِ۪رْتَضَيٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمُۥٓ أَمْناًۖ يَعْبُدُونَنِے لَا يُشْرِكُونَ بِے شَيْـٔاًۖ﴾	[سورة النور الآية 54	180
﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَےْءٖ فَقَدَّرَهُۥ تَقْدِيراًۖ﴾	[سورة الفرقان الآية 2]	181
﴿صُنْعَ أَ۬للَّهِ اِ۬لذِے أَتْقَنَ كُلَّ شَےْءٍۖ﴾	[سورة النمل الآية 90]	194
﴿وَابْتَغِ فِيمَآ ءَاتِيٰكَ أَ۬للَّهُ أُ۬لدَّارَ أَ۬لَاخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ أَ۬لدُّنْيَاۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ أَ۬للَّهُ إِلَيْكَۖ وَلَا تَبْغِ اِ۬لْفَسَادَ فِے اِ۬لَارْضِۖ إِنَّ أَ۬للَّهَ لَا يُحِبُّ أُ۬لْمُفْسِدِينَۖ﴾	[سورة القصص الآية 77]	198

﴿وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾	[سورة العنكبوت الآية 64]	203
﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾	[سورة لقمان الآية 28]	208
﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾	[سورة الأحزاب الآية 62]	214
﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾	[سورة سبأ الآية 28]	117
﴿سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ﴾	[سورة غافر الآية 84]	239
﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾	[سورة فصلت الآية 52]	242
﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ﴾	[سورة الشورى الآية 17]	244
﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾	[سورة الذاريات الآية 21]	262
﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾	[سورة القمر الآية 43]	267
﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ﴾	[سورة القمر الآية 51]	268

﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَالِانسِ إِنِ اِسْتَطَعْتُمُۥٓ أَن تَنفُذُواْ مِنَ اَقْطَارِ اِلسَّمَٰوَٰتِ وَالَارْضِ فَانفُذُواْۖ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٖۖ﴾	[سورة الرحمن الآية 51]	269
﴿اِعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا اَلْحَيَوٰةُ اُلدُّنْيا لَعِبٞ وَلَهْوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٞ فِے اِلَامْوَٰلِ وَالَاوْلَٰدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ اَعْجَبَ اَلْكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَيٰهُ مُصْفَرّاٗ ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰماٗۖ وَفِے اِلَاخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغْفِرَةٞ مِّنَ اَللَّهِ وَرِضْوَٰنٞۖ وَمَا اَلْحَيَوٰةُ اُلدُّنْيَآ إِلَّا مَتَٰعُ اُلْغُرُورِۖ﴾	[سورة الحديد الآية 20]	272
﴿يُسَبِّحُ لِلهِ مَا فِے اِلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِے اِلَارْضِ اِلْمَلِكِ اِلْقُدُّوسِ اِلْعَزِيزِ اِلْحَكِيمِۖ هُوَ اَلذِے بَعَثَ فِے اِلُامِّيِّـۧنَ رَسُولاٗ مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمُۥٓ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ اُلْكِتَٰبَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِے ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾	[سورة الجمعة الآية 1-2]	279
﴿وَلَن يُّوَخِّرَ اَللَّهُ نَفْساً اِذَا جَآءَ اَجَلُهَاۖ وَاللَّهُ خَبِيرُۢ بِمَا تَعْمَلُونَۖ﴾	[سو رة المنافقون الآية 11]	280
﴿ذَرْنِے وَمَنْ يُّكَذِّبُ بِهَٰذَا اَلْحَدِيثِۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ وَأُمْلِے لَهُمُۥٓ إِنَّ كَيْدِے مَتِينٌۖ﴾	[سورة القلم الآية 44-45]	286
﴿اِنَّ أَجَلَ اَللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُوَخَّرُۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَۖ﴾	[سورة نوح الآية 4]	288
﴿فَأَمَّا اَلِانسَٰنُ إِذَا مَا اَبْتَلَيٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَكْرَمَنِۦ وَأَمَّآ إِذَا مَا اَبْتَلَيٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّيَ أَهَٰنَنِۦ كَلَّاۖ بَل لَّا تُكْرِمُونَ اَلْيَتِيمَ﴾	[سورة الفجر الآية 15-19]	302
﴿فَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراٗ يَرَهُۥ وَمَنْ يَّعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٖ شَرّاٗ يَرَهُۥ﴾	[سورة الزلزلة الآية 8-9]	305


Manar al islam
islamanar.com

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

طرف الحديث	الراوي	الكتاب	الباب	ر قم الحديث	الصفحة/ الجزء
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إِنَّ اللَّهَ لَيُمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّى إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يُفْلِتْهُ "	صحيح البخاري	كتا ب : تفسير القرآن	با ب : و كذ لك أخذ ربك إذا أخذ القرى	4686	74/6
عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: "أَتَدْرُونَ مَا الْمُفْلِسُ؟" قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ، فَقَالَ: "إِنَّ الْمُفْلِسَ مِنْ أُمَّتِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ، وَزَكَاةٍ، وَيَأْتِي قَدْ شَتَمَ هَذَا، وَقَذَفَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ فَنِيَتْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ"	صحيح مسلم	ا لبر و ا لصلة والآداب	با ب : تحر يم الظلم	2581	1997/4

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ كَانَتِ الآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللَّهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ"	سنن الترمذي	أ بو ا ب صفة ا لقيا مة والرقائق والورع	ما جاء في صفة أ و ا ني الحوض	2465	642/4
عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِذَا رَأَيْتَ اللَّهَ يُعْطِي الْعَبْدَ مِنَ الدُّنْيَا عَلَى مَعَاصِيهِ مَا يُحِبُّ، فَإِنَّمَا هُوَ اسْتِدْرَاجٌ"	مسند ا لإ ما م أحمد بن حنبل	مسند الشاميين	با ب : حد يث عقبة بن عامر ا لجهني عن النبي صلى الله عليه وسلم	17311	547/28

فهرس المصادر والمراجع:

1) القرآن الكريم برواية ورش.

(الحرف الألف)

2) الاجتهاد المقاصدي، نورد الدين الخادمي، كتاب الأمة، العدد 65، سنة 1419 هـ، وزارة الأوقاف - قطر.

3) الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين، عصر الطّوائف الثاني 510 هـ - 546 هـ / 1116 م - 1151 م، عصمت عبد اللطيف دندش، دار الغرب الإسلامي - بيروت / لبنان، الطبعة الأولى، 1408 هـ / 1988 م.

4) إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي الطوسي (ت: 505هـ)، الناشر: دار المعرفة - بيروت، د: ط.ت.

5) إرشاد الفحول إلي تحقيق الحق من علم الأصول، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (ت : 1250هـ) المحقق : الشيخ أحمد عزو عناية ، دمشق - كفر بطنا، قدم له : الشيخ خليل الميس والدكتور ولي الدين صالح فرفور الناشر : دار الكتاب العربي الطبعة : الطبعة الأولى، السنة: 1419هـ - 1999م.

6) إدارة الدولة الإسلامية، محمد بن شاكر الشريف، موسوعة فقه السياسة الشرعية - المجلّد الثاني، مجلّة البيان، الرياض، الطبعة الأولى، 1424 هـ.

7) أبعاد اقتصادية في قصة يوسف عليه السلام في ضوء القرآن الكريم، فياض صالح علي، مجلّة كلّية العلوم الإسلامية، العدد الثالث عشر، 1434 هـ / 2013 م.

8) أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في الخلق، للدكتور محمد كنعان، كتاب الأمة، ط 1، المحرم 1411 هـ.

9) أزمتنا الحضارية في ضوء سنن الله في خلقه، أحمد كنعان، كتاب الأمة، عدد 26، الدوحة، قطر: السنة 1411هـ1991-م، د: ط.

10) أساس البلاغة، أبي القاسم جار الله فخر خوارزم محمود بن عمر الزمخشري (ت: 538هـ)، قدم له وشرح غريبه وعلق عليه: محمد أحمد قاسم، الناشر: المكتبة العصرية، صيدا - بيروت، ط1، السنة:1423هـ/2003م.

11) الإسلام في عصر العلم: الرسالة والرسول والقرآن والإعجاز العلمي، للدكتور محمد أحمد الغمراوي، تقديم وتصحيح: د. عبد الحليم محمود، دار الإنسان للتأليف والترجمة، القاهرة، ط: 4، السنة: 1411هـ1991-م.

12) الإسلام والوعي الحضاري، أكرم ضياء العمري، جدة: دار المنارة للنشر والتوزيع، السنة: 1407هـ - 1994م، د: ط.

13) أصول الحديث علومه ومصطلحه، محمد عجاج الخطيب، دار الفكر لبنان - بيروت، ط:4، السنة: 1401هـ1981-م.

14) أصول المجتمع الإسلامي، محمود جمال الدين محمد، دار الكتاب المصري، ذ: 1، السنة: 1992.

15) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، محمد الطاهر بن عاشور، دار النفائس، الأردن، ط: 1، السنة2001م.

16) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد بن المختار الجكني الشنقيطي. (ت: 1393هـ)، تحقيق: مكتبة البحوث والدراسات، الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر - بيروت، السنة: 1415هـ1995-م.

17) الإعجاز السنني في القرآن الكريم، محمد أمحزون، منشور كلية الآداب والعلوم الإنسانية، مكناس المغرب، د.ت.

18) الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التأريخ، محمد السخاوي، مؤسسة الرسالة، ط: 1، 1408 م / 1986 هـ

(حرف التاء)

19) تاج العروس من جواهر القاموس، محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (المتوفى: 1205هـ)، المحقق: مجموعة من المحققين، الناشر: دار الهداية، د: ط.ت.

20) تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، خليل إبراهيم السامرّائي - عبد الواحد كنون طه - ناطق صالح مصلوب، دار الكتاب الجديد، بيروت / لبنان، الطبعة الأولى، 2000 م.

21) تبصير المؤمنين بفقه النّصر والتمكين في القرآن الكريم، عليّ محمد الصّلابي، مكتبة الصّحابة، الإمارات / الشارقة، مكتبة التابعين، القاهرة / عين شمس، الطبعة الأولى، 1422 هـ / 2001م.

22) التكاثر المادّي وأثره في سقوط الأندلس، عبد الحليم عويس، دار الصّحوة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1414 هـ / 1994 م.

23) تأصيل علم السنن الربانية، راشد سعيد شهوان، مجلة القسم العربي، العدد الخامس عشر، 2008م

24) التجديد في دراسة الحديث النبوي على نور السنن الإلهية، سلسلة السنن الإلهية ضوابط العلوم المعرفية ، محمد جابري، قدم له: أبو أسامة المصطفى عبد القادر غانم الحسني، مؤسسة الندوي مكتب الدراسات والأبحاث العلمية، وجدة، ط: 1/ جمادى الأولى 1424هـ.

25) التحرير والتنوير "تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد"، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى : 1393هـ)، الناشر : الدار التونسية للنشر - تونس، السنة: 1984 هـ

26) التعريفات، علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (المتوفى: 816هـ)، المحقق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، الناشر: دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى، السنة: 1403هـ 1983-م.

27) التفسير الإسلامي للتاريخ، عماد الدين خليل، بيروت، دار العلم للملايين، ط:4، 1983م.

28) تفسير التاريخ، علم إسلامي- نحور نظرية إسلامية في تفسير التاريخ، عبد الحليم عويس، دار الصحوة للنشر، القاهرة، د: ت.

29) تفسير الشعراوي - الخواطر، المؤلف: محمد متولي الشعراوي (المتوفى: 1418هـ)، الناشر: مطابع أخبار اليوم، د: ط.ت.

30) تفسير القرآن الحكيم المسمى ب (تفسير المنار) السيد رشيد رضا، طبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، السنة: 1973، د: ط.

31) تفسير القرآن العظيم، للحافظ أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي (ت: 774هـ)، مطبعة دار الحديث، القاهرة، ط: 2، السنة: 1410هـ1990-م.

32) التفسير الوسيط، لوهبة الزحيلي، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى - 1422 هـ.

33) تهذيب اللغة، محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (المتوفى: 370هـ)، المحقق: محمد عوض مرعب، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط: 1، السنة: 2001م.

34) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، عبد الرحمن بن ناصر بن عبد الله السعدي (المتوفى: 1376هـ)، المحقق: عبد الرحمن بن معلا اللويحق، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: 1، السنة: 1420هـ 2000- م.

35) التبيان في أقسام القرآن ،: محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة، بيروت، لبنان

36) التيسير في أحاديث التفسير، محمد المكي الناصري (المتوفى: 1414هـ)، الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت - لبنان، الطبعة: الأولى، السنة: 1405 هـ - 1985 م.

(حرف الجيم)

37) جامع البيان في تأويل القرآن، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (المتوفى: 310هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الأولى، السنة: 1420 هـ - 2000 م.

38) جامع الرسائل، تقي الدين أبو العَباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى : 728هـ)، المحقق : د. محمد رشاد سالم، الناشر : دار العطاء - الرياض، الطبعة : الأولى، السنة: 1422هـ - 2001م.

39) الجامع لأحكام القرآن = تفسير القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: 671هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، الناشر: دار الكتب المصرية - القاهرة، الطبعة: 2، السنة: 1384هـ - 1964 م.

40) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي أو الداء والدواء، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: 751هـ)، الناشر: دار المعرفة - المغرب، الطبعة: 1، السنة: 1418هـ - 1997م.

41) الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه = صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي، المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)الطبعة: 1، السنة: 1422هـ

(حرف الحاء)

42) حتى يتحقق الشهود الحضاري، عمر عبيد حسنة، المكتب الإسلامي بيروت، ط: 1، السنة: 1412هـ - 1991م.

43) حتى يغيروا ما بأنفسهم، سلسلة سنن تغيير النفس والمجتمع، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت - لبنان، ط: 7، السنة: 1414هـ - 1993م.

44) حجية السنة، عبد الغني عبد الخالق، سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، دار الوفاء - المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: 1407هـ - 1987م.

45) الحضارات العالمية تدافع أم صراع، محمد عمارة، سلسلة في التنوير الإسلامي 24، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: -1 دجنبر 1998 م.

46) الحضارات العالمية تدافع أم صراع، محمد عمارة، سلسلة في التنوير الإسلامي 24، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ط: -1 دجنبر 1998 م.

47) الحضارة الإسلامية (وجه جديد)، أبو اليزيد زيد العجمي، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع - جمهورية مصر العبية/ القاهرة/ الإسكندرية، ط: 1، السنة: 1427هـ2006-م.

48) الحق في الاخلاف الفكري، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، البيضاء، المغرب، ط: 1، 2005م.

49) الحق في الاخلاف الفكري، طه عبد الرحمن، المركز الثقافي العربي، البيضاء، المغرب، ط: 1، السنة: 2005م.

50) حقيقة التوحيد: بديع الزمان سعيد النورسي، الناشر: دار سوار للطباعة والنشر، ط: 2، 1988م.

51) حول إعادة تشكيل العقل المسلم، عماد الدين خليل، سلسلة كتاب الأمة، (قطر: رئاسة المحاكم الشرعية والشؤون الدينية، ط: 1، السنة: 1402هـ.

(حرف الخاء)

52) الخصوصية والعالمية في الفكر الإسلامي المعاصر، طه جابر العلواني، تقديم: عبد الجبار الرفاعي، سلسلة قضايا إسلامية معاصرة، دار الهادي بيروت- لبنان، ط: 1، السنة: 1424هـ2003-م.

53) الخلافة في الأرض، حسن فرحات، دار القلم/ الكويت، ط: 1، السنة: 1406هـ1986-م.

(حرف الدال)

54) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، عبد الرحمن ابن خلدون، دار الفكر، بيروت، ط: 2، السنة: 1408هـ1988-م.

55) دور القيم والأخلاق في الاقتصاد الإسلامي، د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الأولى، 1415 هـ / 1996 م.

56)

(حرف الذال)

57) الذريعة إلى مكارم الشريع، أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (المتوفى: 502هـ) تحقيق: د. أبو اليزيد أبو زيد العجمي، دار النشر: دار السلام - القاهرة، السنة: 1428 هـ - 2007 م.

(الراء)

58) الرائد في علم العقائد، العربي علي اللوه، مطبعة الهداية - تطوان، 1995م.

59) رسالة في لفظ السنة في القرآن لابن تيمية ضمن جامع الرسائل (المجموعة 1) ت: د محمد رشاد سالم ط 2 1405هـ/ 1984م، مطبعة المدني القاهرة.

60) الرسل والرسالات، عمر سليمان الأشقر، مكتبة الفلاح / دار النفائس، ط:2، 1405 هـ.

61) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، شهاب الدين محمود بن عبد الله الحسيني الألوسي (المتوفى: 1270هـ)، المحقق: علي عبد الباري عطية، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة: 1، السنة: 1415 هـ.

62) رؤية إسلامية لأحوال العالم المعاصر، محمد قطب، الدار البيضاء: المكتبة السلفية، السنة: 1412هـ1992-م.

(حرف السين)

63) سلسة أركان الإيمان . الإيمان بالله جل جلاله . الدكتور علي محمد الصلابي . الناشر: دار المعرفة . بيروت، لبنان . ط: 1 .

64) سورة يوسف دراسة تحليلية (سلسلة القصص القرآني " 1 ")، أحمد نوفل، دار الفرقان للنشر والتوزيع، الأردن - عمّان، الطبعة الأولى، 1409 هـ / 2008 م.

65) سنة الله التي لا تتبدل ولا تتحول، أحمد حسن فرحات، دار عمار للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، السنة: 1420هـ1999-م ، د:ط.

66) السنة قبل التدوين، محمد عجاج بن محمد تميم بن صالح بن عبد الله الخطيب أصل هذا الكتاب: رسالة ماجستير من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة الناشر: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان الطبعة: الثالثة، السنة: 1400 هـ - 1980م.

67) السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي، مصطفى السباعي، المكتب الإسلامي - بيروت، ط: 2، السنة: 1396هـ1976-م.

68) السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول دراسة تأصيلية تطبيقية على الأمم المسلمة والكافرة، محمد أمحزون، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط: 1، السنة: 1432هـ - 2011م.

69) السنن الاجتماعية ومنطق التدافع والتعارف الحضاري، بوعبيد صالح الازدهار، الناشر: دار الكلمة/مصر- القاهرة، ط1، السنة:1435هـ2014-م.

70) السنن الإلهية الكونية والاجتماعية لطائف وبصائر، نشر في مجلة تدبر الصادرة عن الهيئة العالمية لتدبر القرآن الكريم بقطر، السنة الأولى، العدد الأول، محرم 1438هـ/ أكتوبر 2016م.

71) السنن الإلهية حقيقتها وإدراكها في ضوء القرآن الكريم، مجلة معهد الإمام الشاطبي للدراسات القرآنية، العدد السابع، جمادى الآخرة، سنة: 1430هـ.

72) السنن الإلهية في الأمم والأفراد في القرآن الكريم أصول وضوابط، مجدي محمد عاشور، دار السلام - القاهرة، ط1، 1413 هـ / 1993م.

73) السنن الإلهية في الأمم والجماعات والأفراد في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان (ت1435هـ)، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، السنة:1413هـ1993-م.

74) السنن الإلهية في الحياة الإنسانية وأثر الإيمان بها في العقيدة والسلوك، شريف الشيخ صالح الخطيب، دار الرشد، ط: 1، السنة: 1425هـ - 2004م.

75) السنن الإلهية في السيرة النبوية، أبو اليسر رشيد كهوس، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، ط1، السنة:2010م.

76) السنن الإلهية في القرآن الكريم ودورها في استشراف المستقبل، الدكتور عماد عبد الحكيم خصاوونة، خضر ابراهيم قزق مجلة المنارة للبحوث والدراسات، المجلد 15، العدد 2، (2009م).

77) السنن الإلهية من الوعي النظري إلى التأسيس العملي، رشيد كهوس، مراجعة وتقديم: قسم الدراسات والنشر والشؤون الخارجية، دبي - مركز الماجد للثقافة والتراث، ط: 1، السنة: 1436هـ - 2015م.

78) السنن الإلهية وتفسير القرآن الكريم في الحصر الحديث، بحث مقدم لنيل درجة دكتوراه في العلوم الإسلامية تخصص كتاب وسنة، إعداد الطالب: عمر حيدوسي، إشراف: عبد الحميد بوكعباش، السنة الجامعية: 1432هـ - 1433هـ / 2011م- 2012م، الجمهورية الجزائرية، جامعة الحاج لخضر - كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية والعلوم الإسلامية - قسم العلوم الإسلامية.

79) السنن التاريخية في القرآن، محمد باقر الصدر، أعاد صياغة عباراته وترتيب أفكاره محمد جعفر شمس الدين، بيروت: دار التعارف للمطبوعات، السنة: 1409هـ1989-م، د: ط.

80) سنن الطبيعة والمجتمع في القرآن الكريم دراسة تأصيلية تطبيقية، بكار محمود الحاج جاسم، دار النوادر، دمشق - بيروت، ط: 1، السنة: 1433هـ- 2010م.

81) سنن القرآن في قيام الحضارات وسقوطها، محمد هيشور، سلسلة الرسائل الجامعية (30)، المعهد العالمي للفكر الإسلامي - القاهرة ، السنة: 1417هـ1997-م.

82) سنن الله في إحياء الأمم في ضوء الكتاب والسنة، حسين شرفة، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت - لبنان، ط: 1، السنة: 1429هـ - 2008م.

83) سنن الله في الأمم من خلال القرآن الكريم، حسن الحميد - دراسة موضوعية - رسالة جامعية نوقشت في جامعة الإمام محمد بن سعود، في كلية أصول الدين، قسم القرآن وعلومه، الرياض.

84) سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: 279هـ) تحقيق وتعليق، أحمد محمد شاكر (جـ 1، 2)، ومحمد فؤاد عبد الباقي (جـ 3)، وإبراهيم عطوة عوض المدرس في الأزهر الشريف (جـ 4، 5)، الناشر: شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - مصر الطبعة: 2، السنة: 1395 هـ - 1975 م

85) سير أعلام النبلاء، لأبي عبد الله مس الدين محمد بن أحمد ابن عثمان الذهبي (ت: 748هـ)، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط: 9، 1413هـ.

86) سنن الله في المجتمع من خلال القرآن، محمد الصادق عرجون، الدار السعودية للنشر والتوزيع، ط: 3، السنة: 1404هـ - 1984م.

87) السيرة النبوية عرض وقائع وتحليل أحداث، دار المعرفة، ط: 7، السنة: 1429هـ- 2008.

(حرف الشين)

88) شبهات حول الإسلام، محمد قطب، دار الشروق، ط: 21، السنة: 1413هـ1992-م.

89) شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، لابن دقيق العيد، مؤسسة الريان، الطبعة: السادسة 1424 هـ - 2003 م.

(حرف الصاد)

90) الصحوة الإسلامية بين الجحود والتطرف، د. يوسف القرضاوي، نشر بنك التقوى، السنة: 1402هـ، د: ط.

91) الصحوة الإسلامية من المراهقة إلى الرشد، الدكتور يوسف القرضاوي، دار الشروق مصر، ط: 1، السنة: 1423هـ- 2002م.

92) صفوة التفاسير، محمد علي الصابوني، دار: الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع - القاهرة، ط: الأولى، السنة1417 هـ - 1997 م.

(حرف الطاء)

93) طرق الكشف عن مقاصد الشارع، نعمان جغيم ، دار النفائس للنشر والتوزيع، ط: 1، السنة: 1435هـ2014-م.

94) طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين السبكي (ت: 771هـ)، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، طبعة، عيسى الحلبي، ط: 1، 1965م.

(حرف العين)

95) عالمية الإسلام، أنور الجندي، دار المعارف - القاهرة، سلسلة اقرأ - العدد: 426.

96) العقل والعلم في القرآن الكريم، يوسف القرضاوي، القاهرة، مكتبة وهبة، السنة: 1416هـ - 1996م، د: ط.

97) العلمانية، سفر بن عبد الرحمن الحوالي، القاهرة، مكتب الطيب لخدمة التراث، السنة: 1420هـ2000-م، د: ط.

98) علوم الحديث ومصطلحه - عرضٌ ودراسة، د. صبحي إبراهيم الصالح (المتوفى: 1407هـ) ، الناشر: دار العلم للملايين، بيروت - لبنان ،الطبعة: الخامسة عشر، السنة: 1984 م.

99) على طريق الشهود، عمر عبيد حسنة، ط المكتب الإسلامي، بيروت، السنة: 1422هـ.

100) العمل قدرة وإرادة، جودت سعيد، دار الفكر المعاصر، بيروت- لبنان، ط: 2، السنة: 1415هـ- 1994م.

101) عوامل الشهود الحضاري، عبد المجيد عمر النجار، سلسلة الشهود الحضاري للأمة الإسلامية، دار الغرب الإسلامي، بيروت- لبنان، ط: 2، السنة: 2006م.

(حرف الفاء)

102) فقه السنن الإلهية وأثره في الدعوة الإسلامية، دراسة في فكر الشيخ محمد الغزالي لنيل شهادة الدكتوراه، إعداد: الطالب هادف مصطفى، إشراف الدكتور: محمد زرمان، جامعة الحاج لخضر- قسم أصول الدين - باتنة - الجزائر، السنة: 2012-2011.

103) فقه النّصر والتمكين عند دولة المرابطين، عليّ الصّلابي، مكتبة وهبة، القاهرة - مصر، الطبعة الأولى، 1408 هـ / 1988 م.

104) فلسفة التاريخ، يوسف كمال، مجلة المسلم المعاصر، العدد الثالث، رجب 1395هـ يوليوز 1975م.

105) فلسفة التاريخ، يوسف كمال، مجلة المسلم المعاصر، العدد الثالث، رجب 1395هـ يوليوز 1975م.

106) في ظلال القرآن، سيد قطب، دار الشروق القاهرة مصر، ط: 1، السنة: 1972م

107) في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولة - القاهرة، ط: 2، السنة: 1427هـ2007-م.

108) في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام، محمد عمارة، مكتبة الشروق الدولة - القاهرة، ط: 2، السنة: 1427هـ2007-م.

(حرف القاف)

109) القاموس المحيط، مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (المتوفى: 817هـ) ، تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بإشراف: محمد نعيم

العرقسُوسي، الناشر: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة: الثامنة، السنة: 1426 هـ - 2005 م.

110) القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، للعلامة محمد الصادق عرجون، د: ط.ت.

111) قصّة الأندلس من الفتح إلى السّقوط، د. راغب السرجاني، مؤسسة اقرأ، القاهرة، الطبعة الأولى، 1432 هـ / 2011 م.

(حرف الكاف)

112) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (المتوفى: 538هـ)، الناشر: دار الكتاب العربي - بيروت، ط: 3، السنة: 1407 هـ.

113) كيف نتعامل مع القرآن، محمد الغزالي. سلسلة قضايا الفكر الإسلامي، منشورات المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ط: 3، المنصورة: دار الوفاء، 1413هـ1992-م.

114) كيف نفهم الأشياء من حولنا، عبد الكريم بكار، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة - جمهورية مصر العربية - القاهرة، مؤسسة الإسلام اليوم - المملكة العربية السعودية - الرياض، السنة: 1429هـ، د: ط.

(حرف اللام)

115) لسان العرب، جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري (ت: 711هـ)، بيروت، الناشر: دار صادر، ط3، السنة:1414هـ.

(حرف الميم)

116) المبشرات بانتصار الإسلام، الدكتور يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة القاهرة، ط: 1، السنة: 1417هـ - 1996م.

117) المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: 261هـ)، المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت

118) مجلة الفرقان الصادرة عن جمعية المحافظة على القرآن الكريم بالأردن/ العدد 128: أكتوبر 2012.

119) مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: 728هـ) المحقق: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، الناشر: مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف، المدينة النبوية، المملكة العربية السعودية، السنة: 1416هـ/1995م.

120) محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي، دار الكتب العلميه - بيروت، الطبعة: الأولى - 1418 هـ

121) المحاضرات السنية في شرح العقيدة الواسطية لشيخ الإسلام ابن تيمية، محمد الصالح العثيمين ، مكتبة طبرية، الرياض- السعودية، ط: 1، السنة: 1413هـ1993-م.

122) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: 542هـ)، المحقق: عبد السلام عبد الشافي محمد، الناشر: دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة، 1 السنة: 1422 هـ

123) مختار الصحاح، زين الدين أبي عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت:666هـ) تحقيق: يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية - الدار النموذجية، بيروت-صيدا، ط5، السنة: 1420هـ/1999م.

124) مدخل إلى التنمية المتكاملة، عبد الكريم بكار، رؤية إسلامية، دمشق: دار القلم، السنة: 1420هـ2000-م.

125) مدخل إلى مقاصد الشريعة، أحمد الريسوني، دار الكلمة للنشر والتوزيع، الطبعة: 1، السنة: 1431هـ2010-م.

126) المدرسة القرآنية، محمد باقر الصدر، مركز الأبحاث والدراسات التخصصية، ط: 1، السنة: 1421م.

127) مراجعات في الفكر والدعوة والحركة، عمر عبيد حسنة، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، د: ط.ت.

128) مسند الإمام أحمد بن حنبل، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: 241هـ)، المحقق: شعيب الأرنؤوط - عادل مرشد، وآخرون، إشراف: د عبد الله بن عبد المحسن التركي، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: 1، السنة: 1421 هـ - 2001 م.

129) المشوف المعلم في ترتيب الإصلاح على حروف المعجم، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العبكري، (ت: 538هـ/616م)، جامعة أم القرى، مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، السنة: 1403هـ1983-م.

130) مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، دار الغرب الإسلامي، ط: 5، السنة: 1993.

131) مدخل إلى مقاصد الشريعة، الدكتور أمد الريسوني، دار الكلمة للنشر والتوزيع، ط: 1، السنة: 1431هـ2010-م.

132) مقاصد الشريعة الإسلامية، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: 1393هـ) ، المحقق: محمد الحبيب ابن الخوجة، الناشر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، قطر، السنة: 1425 هـ - 2004 م، د: ط.

133) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، للإمام أحمد بن محمد الفيومي (ت770هـ)، الناشر: المكتبة العلمية، بيروت، (ب: ط، ت).

134) معجم الفروق اللغوية، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن سعيد بن يحيى بن مهران العسكري (المتوفى: نحو 395هـ)، المحقق: الشيخ بيت الله بيات، ومؤسسة النشر

الإسلامي، الناشر: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجماعة المدرسين بـ "قم"، الطبعة: 1، السنة: 1412هـ.

135) معجم اللغة العربية المعاصرة، د أحمد مختار عبد الحميد عمر (المتوفى: 1424هـ) بمساعدة فريق عمل، الناشر: عالم الكتب، الطبعة: 1، السنة: 1429 هـ - 2008 م.

136) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة، بيروت، لبنان، ط: 2، السنة: 1411هـ1991-م.

137) المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية بالقاهرة، (إبراهيم مصطفى / أحمد الزيات / حامد عبد القادر / محمد النجار)، د: ط.ت.

138) معجم مقاييس اللغة، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (المتوفى: 395هـ) ، المحقق: عبد السلام محمد هارون، الناشر: دار الفكر السنة: 1399هـ - 1979م.

139) مفاتيح الغيب التفسير الكبير، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: 606هـ)، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت، الطبعة: 3، السنة: 1420 هـ.

140) مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني (ت425هـ)، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، الناشر: دار القلم، دمشق، ط3، السنة:1423هـ2002-م.

141) مفهوم السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، صديق عبد العظيم أبو الحسن، نشر في مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 31، 1417هـ - أبريل 1997.

142) مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير دراسة في ضوء القرآن الكريم، رمضان خميس زكي الغريب، ط: 1، السنة: 1421هـ- 2015م.

143) مفهوم السنن الربانية من الفهم إلى التسخير، دراسة في ضوء القرآن الكريم، رمضان خميس زكي الغريب، دار المقاصد، ط: 1، السنة 1426هـ- 2015 م.

144) معجم المؤلفين، عمر رضا كحالة، مؤسسة الرسالة- بيروت، ط: 1، السنة: 1414هـ1993-م.

145) مقدمات في الفلسفة السننية، مجلة المدونة، مجلة علمية فصلية محكمة تعني بالدراسات والأبحاث الشرعية تصدر عن مجمع الفقه الإسلامي بالهند، السنة الثانية، العدد الخامس، رمضان 1436هـ/ 2015م.

146) ملاحظات حول دراسة السنن الإلهية في ضوء المقاربة الحضارية، عبد العزيز برغوت، مجلة إسلامية المعرفة، من إصدار المعهد العالمي للفكر الإسلامي، السنة الثالثة عشرة، العدد 49، سنة: 1428هـ- 2007م.

147) معجم الأدباء (وإرشاد الأريب إلى معرفة الأديب) لأبي عبد الله ياقوت ابن عبد الله الحموي (ت: 626م)، مطبعة المأمون، دمشق، بدون تاريخ.

148) منهج الحركة الإسلامية في التغيير، محمد عبد القادر أبو فارس، عمان - الأردن، دار الفرقان، ط: 1، السنة: 1411هـ - 1991م.

149) موسوعة ألفاظ القرآن الكريم، محمد عبد المنعم خفاجي، المؤسسة العربية الحديثة - القاهرة، السنة: 1988م، د: ط.

150) موسوعة مصطلحات علم الكلام الإسلامي، سميح دغيم، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت - لبنان، ط: 1998م.

151) مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد بن خلدون ولي الدين، المحقق، عبد الله محمد الدرويش، دار يعرب، ط: 1، السنة: 1425هـ2004-.

152) مؤشرات حول الحضارة، عماد الدين خليل، دار الصحوة للنشر والتوزيع، د: ط.ت.

153) مفهوم السنن الإلهية في الفكر الإسلامي، حازم زكريا محيي الدين، دار النوادر، دمشق- بيروت، ط: 1، السنة: 1428هـ2007-م.

154) الميزان في تفسير القرآن، للسيد محمد حسين الطباطبائي (ت: 1402هـ)، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ط: 5، السنة: 1403هـ1973-م.

(حرف النون)

155) نشأة علم السنن الإلهية ومنهاج تدريسه، رشيد كهوس، نشر في مجلة كلية الشريعة والدراسات الإسلامية، مجلد ،31، العدد 2 ،خريف 1435هـ - 2013م، علمية محكمة جامعة قطر.

156) النصر والهزيمة، إعداد الطالب: عبد اللطيف حسن محمد مرشود، إشراف الدكتور: محسن سميح الخالدة، 2007/04/22م.

157) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (المتوفى: 885هـ)، الناشر: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د: ط.ت.

(حرف الواو)

158) الوحي المحمدي ثبوت النبوة بالقرآن ودعوة شعوب المدينة الى الإسلام دين الأخوة الإنسانية والسلام، للسيد محمد رشيد رضا، مؤسسة عزالدين للطباعة والنشر، الطبعة الثانية 1352 هـ.

159) الورثة الصالحة، بحث قرآني في الحضارة، فاروق حمادة، مطبعة النّجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 1399هـ / 1979 م.

160) وقفات تربوية في ضوء القرآن الكريم، عبد العزيز الجليل، الرياض، دار طيبة، ط: 4، السنة: 2003م.

فهرس المحتويات

هذا الكتاب

فلا غرو أنَّ مشيئة الباري عزَّ وجلّ وحكمته البالغة وتدبيره المحكم تجلّى في خلقه لهذا العالم سفليّه وعلويّه، بهذا التناسق البالغ الدقة والإتقان، ثم إخضاعه لنواميس وسنن تجعله أكثر تناسقا وانتظاما في جزئياته وكذا حركاته وسكناته، كما سنّ للإنسان فردا كان أم جماعة - وهو الخاضع كذلك لهذه النواميس والسنن - شريعةً تنظم حياته وترتقي بإنسانيته لتحقيق تعايش يسوده الأمن والسلام والاستقرار.

فالله سبحانه وتعالى لم يترك الحياة الاجتماعية تسير عبثا، بل جعل لها قوانين تنظمها، ونواميس تحكمها، فكما أن للمادة قوانين ثابتة لا تتغير، فإن للأمم والمجتمعات كذلك قواعد ونظما تنظم سيرها وتحكم مسيرتها.

فمنظومة السنن الإلهية إذاً لم تقتصر على المجال الكوني فقط، وإنما شملت المجال الاجتماعي أيضا، والجدير بالذكر كذلك أن هذه السنن الاجتماعية جاءت لتحقيق جملة من المقاصد والغايات السامية، لذلك وجب الاهتمام بهذا الموضوع أكثر؛ من خلال إبراز مقاصد هذه السنن الاجتماعية بالرجوع إلى القرآن الكريم باعتباره أهمّ مصادر السنن.

ومن هذا المنطلق كانت فكرة موضوع هذا البحث، والذي وسمته ب: "**مقاصد السنن الاجتماعية في القرآن الكريم** ". وهو موضوع رسالتي لنيل شهادة الماستر، والذي أسعى من خلاله إلى إضافة لبنة جديدة جادّة في مجال الدراسات الإسلامية عامة والقرآنية خاصة والسننية على الخصوص، مهما كانت هذه الدراسة متصفة بالنقص والقصور، وهذا حال كلّ جهد بشري.